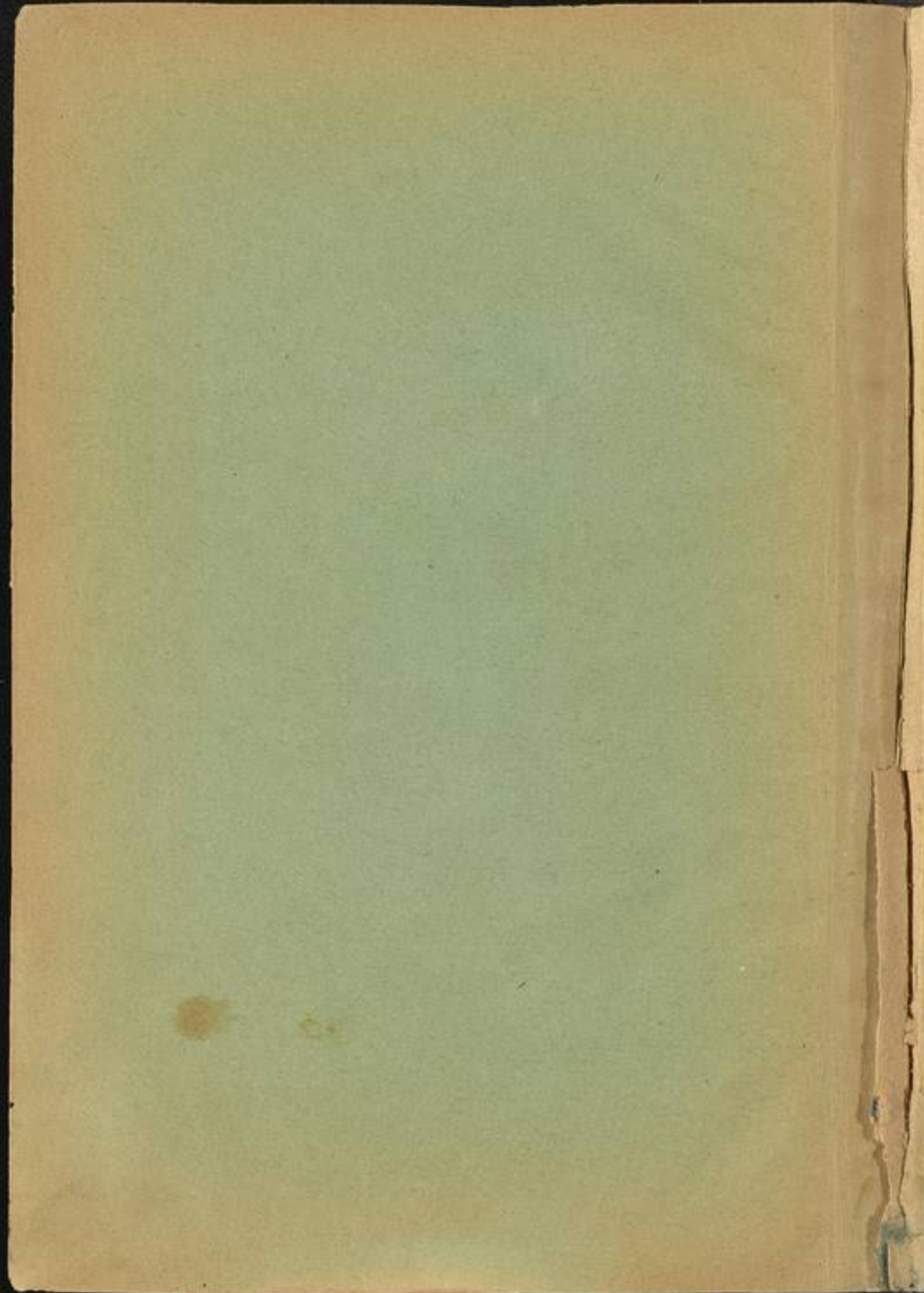


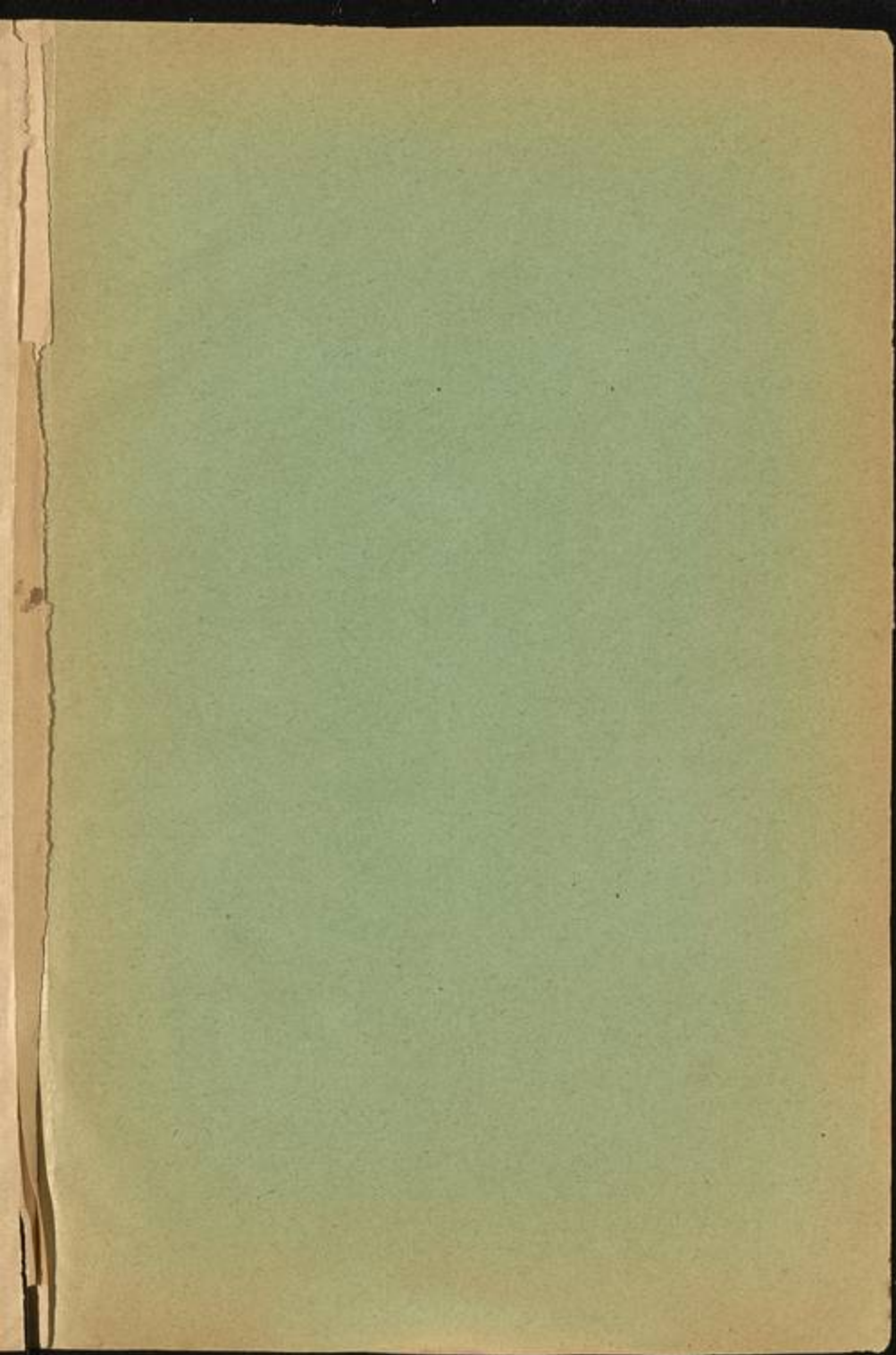
تفسير القرآن الكريم
مؤلفه: العلامة محمد بن عبد الوهاب
الطبعة الأولى: 1300 هـ



THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY







تفسير الفاتحة

مبدؤ بمقدمة التفسير

ملخص من دروس الامام العليم والاستاذ الحكيم
الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية الآن
حفظه الله آمين

وبله ثلاث مقالات تفسيريه له أيضاً

(أولها) في قوله تعالى (وان تصبهم حسنة يقولوا هذا
من عند الله) الخ الآية مع الجمع بينها وبين قوله تعالى
(ما أصابك من حسنة فمن الله) الخ الآية (وثانها)
بيان مسألة الغرائب ودحض الشبه فيها وتفسير الآيات
أيضاً (وثالثها) توضيح مسألة زيد وزينب أو ابطال
التبني في الاسلام وتفسير الآيات الواردة في ذلك

(النزم طبعه احمد عمر المحمصاني الازهري)

حقوق الطبع محفوظة لصاحب المنار

(طبع بمطبعة الموسوعات بباب الخلق بمصر سنة ١٣١٩)
« لصاحبها اسماعيل حافظ »

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

حمدًا لمن علّم الأميين بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم، وصلاحاً
وسلاماً على سيدنا محمد المبعوث للامم، وعلى آله وصحبه وسلم
وبعد فان القرآن هو هداية الله العظمى لعباده صالح
باتباعه من لم يعرف من قبله اصلاحاً، وأفلح به من لم يجد
من دونه فلاحاً، وقد أنشأ المسلمون يشعرون في هذه الايام
بأنهم مافقدوا مجد سلفهم الصالحين، وتلك السعادة التي كانت
لآبائهم الأولين، الا لأنهم لم يهتدوا به كهديتهم، ولم يأخذوه
بقوة كأخذهم، ورجع طلاب الاصلاح فيهم الى قاعدة الامام
مالك بن أنس رحمه الله تعالى وهي «لا يصلح آخر هذه الامة
الا بما صلح به أولها» ورأوا الامة في حاجة شديدة الى فهم
القرآن من حيث كونه هادياً الى السعادة ومرشداً الى كمال
العمران الاجتماعي

ومن فضل الله تعالى على الانسان انه لا يستمد لشيء
من الخير الا ويفيضة عليه بفضله وكرمه فألهم محمداً عبده
(مفتي الديار المصرية لهذا العهد) ان يفتح للمسلمين هذا الباب،

وهو عبد آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، وجعله إماماً
 لأولى الألباب ، فأنشأ يفسر القرآن على هذا الوجه في الجامع
 الازهر الشريف في مجالس يحضرها العلماء والطلاب وكثير
 من الوجهاء ورجال الحكومة وأجمع أهل الفضل على أن هذا
 التفسير هو الذي ينفخ روح الحياة المليئة في المسلمين وأنه يجب
 نشره في جميع الاقطار ورغب الي كثير من أهل القطر
 المصري وغيره ان أنشر في « المنار » خلاصة ما يقرره الاستاذ
 في الدرس لأن المنار هو المجلة الدينية الوحيدة المنتشرة في الاقطار
 فوافقت رغبتهم رغبتى بل علمت ان هذا واجب عليّ وان المنار ما
 انشئ الا لثله فطفقت أكتب خلاصة التفسير وأنشرها في
 المنار متتابعة بعد عرضها على الامام المفسر وإجازتها من لدنه
 وبعد ان تم نشر تفسير الفاتحة رأيت الرغبات متوجهة الى
 طبعه في كتاب على حدة لأن هذه السورة هي التي لا يبجلها
 مسلم في الدنيا لانها من فرائض الصلاة وأركانها ولأنه أجمل فيها
 ما فصل في الكتاب كله تفصيلاً . فعزمت على تجريد هاهنا من « المنار »
 وطبعها مستقلة ليعم نشرها وينفع بها من لم يقرأ المجلة . ولكن
 الشواغل الكثيرة قضت بالارجاء والتسويق حتى انبرى أخى في

١-٢٥-٦٤

١٢

الله تعالى الفاضل الغبور الشيخ احمد عمر المحمصاني الأزهرى
 لمساعدتي على الطبع والنشر فأفذهنا بعد عرضه ثانية على الاستاذ
 واجازته وتصحيحه وزيادته بعض فوائده. ورأيت ان نضم الى تفسير
 الفاتحة مقدمة التفسير وتفسير بعض الآيات التي أشكل على العلماء
 حلها لانها من المتشابهات التي فتن المسلمين بها أهل التأويل. وأكثر
 القدح بسببها المخالفون لنا في الدين، وهي (١) ما يتعلق بنسبة
 أفعال العبد اليه تارة والى الله تعالى تارة اخرى بما يوهم التناقض في
 قوله تعالى « وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ
 سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » وقوله عن
 وجل « مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ
 نَفْسِكَ » (٢) ما استدلوا به على مسألة الغرائق الشهيرة القادحة
 في الثقة بالوحي لو صحت. (٣) ما ورد في شأن تطليق زيد بن حارثة
 زينب بنت جحش رضي الله عنهما وتزوج النبي صلى الله عليه وسلم
 بها لحكمة إبطال سنة النبي السيئة. وقد كتب الامام المفتي تفسير
 هذه الآيات بقلمه كتابة حلت عقد كل إشكال ونشرت في
 المنار داحضة للشبهات، منيرة للظلمات، قامعة للأباطيل، وعلى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نبدأ وإياك نستعين * إهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم * غير المغضوب عليهم ولا الضالين * آمين

﴿ مقدمة التفسير ﴾

فهم القرآن بالتعقل والتدبر • للتفسير وجوه شتى • القرآن حجة قائمة الى يوم القيامة ولا بد لكل مسلم أن يكون له من فهمه نصيب بقدر طاقته واستعداده • مراتب التفسير • ما الذي يجب على الناس من التفسير • التفسير فرض كفاية • الحاجة الشديدة الى التفسير اليوم وفيما بعده • جاهلية الناس اليوم أعرق في الجهل من الجاهلية الاولى •

تأثير القرآن العظيم واعناء العلماء الاولين باللغة العربية

التكلم في تفسير القرآن ليس بالأمر السهل وربما كان من أصعب الأمور وأهمها وما كل صعب يترك ولذلك لا ينبغي أن يمتنع الناس عن طلبه • ووجوه الصعوبة كثيرة أهمها أن القرآن كلام سماوي تنزل من حضرة الربوبية التي لا يكتنه كنهها على قلب أكمل الانبياء وهو يشتمل على معارف عالية •

ومطالب سامية . لا يشرف عليها الا اصحاب النفوس الزاكية
 والعقول الصافية . وان الطالب له يجد امامه من الهبة
 والجلال . الفائضين من حضرة الكمال . ما يأخذ بتليبه .
 ويكاد يحول دون مطلوبه . ولكن الله تعالى خفف علينا
 الأمر بأن أمرنا بالفهم والتعقل لكلامه لأنه انما أنزل
 الكتاب نوراً وهدى مبيناً للناس شرائع وأحكامه ولا يكون
 كذلك الا إذا كانوا يفهمونه

والتفسير الذي نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو
 دين يرشد الناس الى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم
 الآخرة فان هذا هو المقصد الأعلى منه وما وراء هذا من
 المباحث تابع له أو وسيلة لتحصيله

التفسير له وجوه شتى أحدها النظر في أساليب الكتاب
 ومعانيه وما اشتمل عليه من أنواع البلاغة ليعرف به علو
 الكلام وامتيازه على غيره من القول . سلك هذا المسلك
 الزمخشري وقد ألمّ بشيء من المقاصد الأخرى ونحنا نحوه
 آخرون (ثانيها) الاعراب وقد اعتنى بهذا اقوام توسعوا في
 بيان وجوهه وما تحتمله الألفاظ منها (ثالثها) تتبع القصص

وقد سلك هذا المسلك أقوام زادوا في قصص القرآن ماشاؤا
من كتب التاريخ والاسرائيليات ولم يعتمدوا على التوراة
والانجيل والكتب المعتمدة عند أهل الكتاب وغيرهم بل
أخذوا جميع ما سمعوه عنهم من غير تفريق بين غث وسمين
ولا تقيح لما يخالف الشرع ولا يطابق العقل (رابعها) غريب
القرآن (خامسها) الاحكام الشرعية من عبادات ومعاملات
والاستنباط منها (سادسها) الكلام في اصول العقائد ومقارعة
الزائعين ومحاجة المختلفين وللإمام الرازي العناية الكبرى بهذا
النوع (سابعها) المواعظ والرقائق وقد مرزجها الذين ولعوا
بها بحكايات المتصوفة والعباد وخرجوا ببعض ذلك عن حدود
الفضائل والآداب التي وضعها القرآن (ثامنها) ما يسمونه
بالاشارة وقد اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية
ومن ذلك التفسير الذي ينسبونه للشيخ الأكبر محي الدين
ابن عربي. وانما هو للقاشاني الباطني الشهير وفيه من النزغات
ما يتهرب منه دين الله وكتابه العزيز
وقد عرفت ان الاكثار في مقصد خاص من هذه
المقاصد يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهي

ويذهب به في مذاهب تنسيه معناه الحقيقي لهذا كان الذي
نعنى به من التفسير هو ما سبق ذكره ويتبعه بلا ريب بيان
وجوه البلاغة بقدر ما يحتمله المعنى وتحقيق الاعراب على
الوجه الذي يليق بفصاحة القرآن وبلاغته

ويمكن أن يقول بعض أهل هذا المصير لا حاجة الى
التفسير والنظر في القرآن لان الائمة السابقين نظروا في
الكتاب والسنة واستنبطوا الاحكام منها فما علينا الا أن ننظر
في كتبهم ونستغني بها . هكذا زعم بعضهم ولو صح هذا الزعم
لكان طلب التفسير عبثاً يضيع به الوقت سدى وهو على ما فيه
من تعظيم شأن الفقه مخالف لاجماع الامة من النبي صلى الله
عليه وسلم الى آخر واحد من المؤمنين ولا أدري كيف يخطر
هذا على بال مسلم

الاحكام العملية التي جرى الاصطلاح على تسميتها فقها هي
أقل ما جاء في القرآن وإن فيه من التهذيب ودعوة الارواح الى
ما فيه سعادتها ورفعها من حضيض الجهالة الى أوج المعرفة
وارشادها الى طريقة الحياة الاجتماعية ما لا يستغني عنه من
يؤمن بالله واليوم الآخر وما هو أجدربالدخول في الفقه الحقيقي

ولا يوجد هذا الارشاد الا في القرآن

وفيا أخذ منه كاحياء العلوم حظ عظيم من علم التهذيب
ولكن سلطان القرآن على نفوس الذين يفهمونه وتأثيره في
قلوب الذين يتلونه حق تلاوته لا يساهمه فيه كلام كما ان
الكثير من حكمه ومعارفه لم يكشف عنها اللثام ولم يفصح عنها
عالم ولا إمام . ثم إن أئمة الدين قالوا إن القرآن سيأتي حجة
على كل فرد من أفراد البشر الى يوم القيامة لحديث (والقرآن حجة
لك أو عليك) ولا يعقل هذا الا بفهمه والاصابة من حكمته وحكمه
خاطب الله بالقرآن من كان في زمن التنزيل ولم يوجه
الخطاب اليهم لخصوصية في أشخاصهم بل لأنهم من أفراد
النوع الانساني الذي أنزل القرآن لهديته . يقول الله تعالى
(يا أيها الناس اتقوا ربكم) فهل يعقل انه يرضى منا بأن لانفهم
قوله هذا ونكتفي بالنظر في قول ناظر نظر فيه لم يأتنا من الله
وحيُّ بوجود اتباعه لاجلة ولا تفصيلاً . كلا انه يجب على
كل واحد من الناس أن يفهم آيات الكتاب بقدر طاقته لافرق
بين عالم وجاهل . يكفي العامي من فهم قوله تعالى (قد أفلح
المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون) الخ ما يعطيه الظاهر

من الآيات وأن الذين جُمعت أوصافهم في الآيات الكريمة لهم الفوز والفلاح عند الله تعالى ويكفي في معرفة الأوصاف أن يعرف معنى الخشوع والاعراض عن اللغو وما لا خير فيه والاقبال على ما فيه فائدة له دنيوية أو أخروية وبذل المال في الزكاة والوفاء بالعهد وصدق الوعد والعفة عن آيات الفاحشة وأن من فارق هذه الأوصاف إلى اضدادها فهو المتعدي حدود الله المتعرض لغضبه . وفهم هذه المعاني مما يسهل على المؤمن من أي طبقة كان ومن أهل أي لغة كان ومن الممكن أن يتناول كل أحد من القرآن بقدر ما يجذب نفسه إلى الخير ويصرفها عن الشر فان الله تعالى أنزله لهدايتنا وهو يعلم منا كل أنواع الضعف الذي نحن عليه . وهناك مرتبة تعلمو على هذه وهي من فروض الكفاية

للتفسير مراتب أدناها أن يبين بالأجمال ما يشرب القلب عظمة الله تعالى وتنزيهه ويصرف النفس عن الشر ويجذبها إلى الخير وهذه هي التي قلنا أنها متيسرة لكل أحد وأما المرتبة العليا فهي لا تتم إلا بأمر

(أحدها) فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعها

القرآن بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة غير مكثف بقول فلان وفهم فلان فإن كثيراً من الالفاظ كانت تستعمل في زمن التنزيل لمعان ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد . من ذلك لفظ التأويل اشتهر بمعنى التفسير مطلقاً أو على وجه مخصوص ولكنه جاء في القرآن بمعان أخرى كقوله تعالى (هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق)
 فما هذا التأويل^(١) يجب على من يريد الفهم الصحيح أن يتبع الاصطلاحات التي حدثت في الملة ليفرق بينها وبين ماورد في الكتاب فكثيراً ما يفسر المفسرون كلمات القرآن بالاصطلاحات التي حدثت في الملة بعد القرون الثلاثة الأولى^(٢) فعلى المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعاني التي كانت مستعملة في عصر

(١) لا أتذكر أن الاستاذ ذكر معناه عند التمثيل وهو العاقبة

وما يعد به (أى القرآن) من المثوبة والعقوبة

(٢) من ذلك لفظ الولي معناه في القرآن غالباً الناصر والموالي وأولياء الله أنصار دينه من أهل الايمان والتقوى . وقد اصطاحوا بعد ذلك على أن الاولياء صنف من الناس تظهر على أيديهم الخوارق وينصرفون في الكون بما وراء الاسباب ولم يعرف الصحابة هذا المعنى

نزوله والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه بأن يجمع ما تكرر في مواضع منه وينظر فيه فر بما استعمل بمعان مختلفة كلفظ الهداية (سيأتي تفسيره في الفاتحة) وغيره ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معني الآية فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه . وقد قالوا ان القرآن يفسر بعضه ببعض وان أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ موافقته لما سبق له من القول واتفاقه مع جملة المعنى واتلافه مع التصدد الذي جاء له الكتاب بجماله

(ثانيها) الأساليب فينبغي أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته مع التفطن لنتكته ومحاسنه والعناية بالوقوف على مراد المتكلم منه . نعم اننا لا نتسامى الى فهم مراد الله تعالى كله على وجه الكمال والتمام ولكن يمكننا فهم ما نهتدي به بقدر الطاقة . ويحتاج في هذا الى علم الاعراب وعلم الأساليب (المعاني والبيان) ولكن مجرد العلم بهذه الفنون وفهم مسائلها وحفظ أحكامها لا يفيد المطلوب . ترون في كتب العربية أن العرب كانوا مسددين في النطق يتكلمون بما يوافق القواعد

قبل أن توضع . أتخسبون أن ذلك كان طبيعياً لهم . كلا وإنما هي ملكة مكتسبة بالسمع والمحاكاة ولذلك صار أبناء العرب أشد عجمة من العجم عند ما اختلطوا بهم ولو كان طبيعياً ذاتياً لهم لما فقدوه في مدة خمسين سنة من بعد الهجرة

(ثالثها) علم أحوال البشر — فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب وبين فيه ما لم يبينه في غيره . بين فيه كثيراً من أحوال الخلق وطبائعه والسنن الإلهية في البشر وقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها فلا بد للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر في أطوارهم وأدوارهم ومناشئ اختلاف أحوالهم من قوة وضعف وعز وذل وعلم وجهل وإيمان وكفر ومن العلم بأحوال العالم الكبير علويه وسفليه ويحتاج في هذا إلى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه

قال الاستاذ — أنا لا أعقل كيف يمكن لاحد ان يفسر قوله تعالى (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) الآية — وهو لا يعرف أحوال البشر وكيف اتحدوا وكيف تفرقوا وما معنى تلك الوحدة التي كانوا عليها وهل

كانت نافعة أم ضارة وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم .
 أجل القرآن الكلام عن الأمم وعن السنن الإلهية وعن
 آياته في السموات والأرض وفي الآفاق والانس وهو أجمال
 صادر عن أحاط بكل شيء علما وأمرنا بالنظر والتفكير والسير
 في الأرض لنفهم أجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاء وكاملا ولو
 اكتفينا من علم الكون بنظرة في ظاهره لكننا كمن يعتبر
 الكتاب بلون جلده لا بما حواه من علم وحكمة

(رابعها) العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن فيجب على
 المفسر القائم بهذا الفرض الكفائي أن يعلم ما كان عليه الناس
 في عصر النبوة من العرب وغيرهم لأن القرآن ينادي بأن الناس
 كلهم كانوا في شقاء وضلال وأن النبي صلى الله عليه وسلم
 بعث به لهدايتهم وإسعادهم . وكيف يفهم المفسر ما قبضته
 الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة أو ما يقرب منها إذا لم
 يكن عارفا بأحوالهم وما كانوا عليه . هل يكتفي من علماء
 القرآن دعاة الدين والمناضلين عنه بالتقليد بأن يقولوا تقليداً
 لغيرهم إن الناس كانوا على باطل وأن القرآن دحض أباطيلهم
 في الجملة . كلا .

(خامسها) العلم بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه
وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف في الشؤون دنيويها
وأخرويها = فعلم مما ذكرنا أن التفسير قسمان (احدهما) جافٌ
مبعد عن الله وكتابه وهو ما يقصد به حل الالفاظ واعراب
الجل وبيان ما ترمى اليه تلك العبارات والاشارات من النكت
الفنية وهذا لا ينبغي أن يسمى تفسيراً وإنما هو ضرب من
التمرين في الفنون كالنحو والمعاني وغيرها و (ثانيهما) وهو
التفسير الذي قلنا إنه يجب على الناس على أنه فرض كفاية
هو الذي يستجمع تلك الشروط لاجل أن تستعمل لغايتها وهو
ذهاب المفسر الى فهم مراد القائل من القول وحكمة
التشريع في العقائد والاخلاق والاحكام على الوجه الذي يجذب
الارواح ويسوقها الى العمل والهداية المودعة في الكلام ليتحقق
فيه معنى قوله (هدى ورحمة) ونحوها من الاوصاف . فالقصد
الحقيقي وراء كل تلك الشروط والفنون وهو الاهتداء بالقرآن
(قال الاستاذ) وهذا هو الفرض الاول الذي أرمي اليه
في قراءة التفسير

وتكلم الاستاذ أيضاً عن التفسير والتأويل في اصطلاح

العلماء ثم بين عظيم شأن تفسير القرآن وفهمه بما مثاله : مثل الناطقين بالعربية الآن — من العراق الى نهاية بلاد مراكش — بالنسبة الى العرب في لغتهم كمثل قوم من الاعاجم مخالطين للعرب وجد في كلامهم بسبب المخالطة مفردات كثيرة من العربية فهؤلاء الاقوام اشد حاجة الى التفسير وفهم القرآن من المسلمين الاولين لاسيما من كانوا في القرن الثالث حيث بدى بكتابة التفسير وأحسن المسلمون بشدة حاجتهم اليه ولا شك ان من يأتي بعدنا يكون احوج منا الى ذلك اذا بقينا على تقهقرنا ولكن اذا يسر الله لنا نهضة لاحياء لغتنا وديننا فربما يكون من بعدنا احسن حالا منا .

التفسير عند قومنا اليوم ومن قبل اليوم بقرون هو عبارة عن الاطلاع على ما قاله بعض العلماء في كتب التفسير على ما في كلامهم من اختلاف يتزه عنه القرآن « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » وليت اهل العناية بالاطلاع على كتب التفسير يطلبون لانفسهم معنى تستقر عليه افهامهم في العلم بمعاني الكتاب ثم يبتئونه في الناس ويحملونهم عليه . لم يطلبوا ذلك وانما طلبوا صناعة يفاخرون بالتفنن فيها ويمارون

فيها من يباريهم في طلبها ولا يخرجون لإظهار البراعة في
تحصيلها عن حد الاكثار من القول واختراع الوجوه من التأويل
والاغراب في الابداد عن مقاصد التنزيل . ان الله تعالى
لا يسألنا يوم القيامة عن أقوال الناس وما فهموه وانما يسألنا
عن كتابه الذي أنزله لارشادنا وهدايتنا عن سنة نبيه الذي بين
لنا ما نزل الينا (وأنزلنا اليك الذكركلتين للناس ما نزل اليهم)
يسألنا هل بلغتكم الرسالة . هل تدبرتم ما بلغتم؟ هل عقلم ما عنه
نهيتم وما به امرتم؟ وهل عملتم بارشاد القرآن واهتديتم بهدي
النبي وآبعتكم سنته؟ عجباً لنا ننتظر هذا السؤال ونحن في هذا
الإعراض عن القرآن وهديه في اللغفلة والغرور

معرفةنا بالقرآن كمعرفةنا بالله تعالى — أول ما يلحق الوليد
عندنا من معرفة الله تعالى هو اسم (الله) تبارك وتعالى يتعلمه
بالايثار الكاذبه كقوله (والله لقد فعلت كذا وكذا والله
ما فعلت كذا) . كذلك القرآن يسمع الصبي ممن يعيش معهم
أنه كلام الله تعالى ولا يعقل معنى ذلك ثم لا يعرف من
تعظيم القرآن الا ما يعظمه به سائر المسلمين الذين يتربى بينهم
وذلك بامر من (أحدهما) اعتقاد أن آية كذا اذا كتبت ومحيت

بماء وشربه صاحب مرض كذا يشفى وأن من حمل القرآن لا يقربه جن ولا شيطان ويبارك له في كذا وكذا إلى غير ذلك مما هو مشهور ومعروف للامة اكثر مما هو معروف للخاصة . ومع صرف النظر عن صحة هذا وعدم صحته نقول إن فيه مبالغة في التعظيم عظيمة جداً ولكنها (وبالأسف) لا تزيد عن تعظيم التراب الذي يؤخذ من بعض الاضرحة ابتغاء هذه المنافع والفوائد نفسها . ونحو هذا ما يعلق على الاطفال من التعاويذ والتناجيس كالخرف والعظام والتمائم المشتعلة على الطلسمات والكلمات الاعجمية المنقولة عن بعض الامم الوثنية . هذا الضرب من تعظيم القرآن نسميه اذا جرينا على سنة القرآن عبادة للقرآن لا عبادة لله به (ثانيها) الهزّة والحركة المخصوصة والكلمات المعلومة التي تصدر ممن يسمعون القرآن اذا كان القارئ رخيماً الصوت حسن الأداء عارفاً بالتطريب على أصول النغم والسبب في هذه اللذة والنشوة هو حسن الصوت والنغم بل أقوى سبب لذلك هو بعد السامع عن فهم القرآن وأعني بالفهم ما يكون عن ذوق سليم تصيبه أساليب القرآن بعجائبها وتملكه مواضعها فتشغله عما بين يديه

مما سواه . لا أريد الفهم المأخوذ بالتسليم الاعمى من الكتب
أخذاً جافاً لم يصحبه ذلك الذوق وما يتبعه من رقة الشعور
ولطف الوجدان اللذين هما مدار التعمق والتأثر والفهم والتدبر .
لهذا كله يمكننا أن نقول ان الجاهلية اليوم أشد من الجاهلية
والضالين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لان من أولئك من قال
الله تعالى فيهم (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) ومعرفة الحق أمر
عظيم شريف نعم ربما كان أتم صاحبها مع الجحود أشد ولكنه
يكون دائماً ملوماً من نفسه على الاعراض عن الحق وهذا
اللوم يزلزل ما في نفسه من الاصرار على الباطل

كان البدوى راعي الغنم يسمع القرآن فيخبر له ساجداً لما
عنده من رقة الاحساس ولطف الشعور فهل يقاس هذا
بأي متعلم اليوم؟ . أرايت أهل جزيرة العرب كيف انضوا
الى الاسلام بجاذبية القرآن لما كان لهم من رقة المدارك التي
كانت سبب الانجذاب الى الحق . وأشار الاستاذ هنا الى البنت
الاعرابية التي فطنت لاشتمال الآية الآتية على أمرين ونهيين
وبشارتين . ومجمل الخبر أن الاصمعي قال سمعت بنتاً من
الاعراب خماسية أو سداسية تنشد

استغفر الله لذنبى كله قتلت انساناً بغير حله
 مثل غزال ناعم فى دَلِهِ وانتصف الليل ولم أصله
 فقلت لها قاتلك الله ما أفصحك فقالت ويحك أيمد هذا
 فصاحة مع قوله تعالى « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا
 خفت عليه فأتيه فى اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه اليك
 وجعلوه من المرسلين » فجمع فى آية واحدة بين أمرين
 ونهيين وبشارتين

لما رأى علماء المسلمين فى الصدر الاول تأثير القرآن فى
 جذب قلوب الناس إلى الاسلام وأن الاسلام لا يحفظ الا به
 ولما كان العرب قد اختلطوا بالعجم وفهم من دخل فى الاسلام
 من الاعاجم ما فهمه علماء العرب أجمع كل على وجوب حفظ
 اللغة العربية ودوتوا لها الدواوين ووضعوا لها القنون . نعم
 إن الاشتغال بلغة الامة وآدابها فضيلة فى نفسه ومادة من
 مواد حياتها ولا حياة لامة ماتت لغتها ولكن لم يكن هذا
 وحده هو الحامل لسلف الامة على حفظ اللغة بمفرداتها
 وأساليبها وآدابها وانما الحامل لهم على ذلك ما ذكرنا . ألف
 العلامة الاسفرايى كتابا فى الفرق ختمه بذكر أهل السنة

ومزاياهم وعدّ من فضائلهم التي امتازوا بها على سائر الفرق
التبريز في اللغة وآدابها وبين ذلك بأجلى بيان . فإن هذه المزايا
وأين آثارها في فهم القرآن بل وفهم ما دونه من الكلام البليغ ؟
وقد بينا وجه الحاجة في التفسير الى تحصيل ملكة الذوق
العربي والى غير ذلك من الامور التي يتوقف عليها فهم القرآن

﴿ سورة الفاتحة ﴾

سميت الفاتحة فاتحة لأنها أول القرآن في هذا الترتيب
(وتكلم عن لفظ الفاتحة وعن التاء فيه) وتسمى أم الكتاب
وقالوا إن حديث النهي عن تسميتها هذا الاسم موضوع .
ثم قال . يتكلمون عند الكلام عن السور على المكي والمدني
وهو يفيد في معرفة الناسخ والمنسوخ وليس في الفاتحة ناسخ
ولا منسوخ وهي مكية خلافاً لمجاهد فالاجماع على أن الصلاة
كانت بالفاتحة لأول فرضيتها ولا ريب أن ذلك كان في مكة
وقالوا هي المراد بالسبع المثاني في قوله تعالى (ولقد آتيناك سبعاً
من المثاني والقران العظيم) وهو مكي بالنص . وقال بعضهم
انها نزلت مرتين مرة بمكة عند فرضية الصلاة وأخرى بالمدينة
حين حوالت القبلة وكأن صاحب هذا القول اراد الجمع بين

القولين وليس بشيء . وقال كثيرون انها اول سورة انزلت بتامها
ثم رجح الاستاذ الحكيم انها اول ما نزل على الاطلاق ولم
يستثن قوله تعالى (اقرأ باسم ربك) ونزع في الاستدلال على
ذلك منزعا غيرياً في حكمة القران وفقه الدين فقال ما مثاله
ومن آية ذلك ان السنة الالهية في هذا الكون سواء
كان كون ايجاد او كون تشريع ان يظهر سبحانه الشيء مجعلاً
ثم يتبعه التفصيل بعد ذلك تدريجاً وما مثل الهدايات الالهية
الامثلة البذرة والشجرة العظيمة فهي في بدايتها مادة حياة
تحتوي على جميع اصولها ثم تنمو بالتدرج حتى تسبق فروعها بعد
ان تعظم دوحها ثم تجود عليك بثمرها . والفاتحة مشتملة على
مجملة ما في القران وكل ما فيه تفصيل للاصول التي وضعت فيها
ولست اعنى بهذا ما يعبرون عنه بالاشارة ودلالة الحروف
كقولهم ان اسرار القران في الفاتحة واسرار الفاتحة في البسملة
واسرار البسملة في الباء واسرار الباء في نقطتها فان هذا لم يثبت
عن النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه عليهم الرضوان ولا هو
معقول في نفسه وانما هو من مخترعات الغلاة الذين ذهب
بهم الغلو إلى اعدام القران خاصته وهي البيان

(قال) وبيان ما أريد أن مانزل القرآن لاجله أمور
 (أحدها) التوحيد لان الناس كانوا كلهم وثنيين وان كان بعضهم
 يدعي التوحيد (ثانيها) وعد من أخذ به وتبشيره بحسن المثوبة
 ووعيد من لم يأخذ به وإنذاره بسوء العقوبة . والوعد يشمل
 ما للامة وما للافراد فيم نعم الدنيا والآخرة وسعادتهما والوعيد
 كذلك يشمل نعمهما وشقاءهما فقد وعد الله المؤمنين
 بالاستخلاف في الارض والعزة والسلطان والسيادة وأوعد
 المخالفين بالحزبي والشقاء في الدنيا كما وعد في الآخرة بالجنة
 والنعيم وأوعد بنار الجحيم (ثالثها) العبادة التي تحيي التوحيد
 في القلوب وتثبتته في النفوس (رابعها) بيان سبيل السعادة
 وكيفية السير فيه الموصل الى نعم الدنيا والآخرة (خامسها)
 قصص من وقف عند حدود الله تعالى وأخذ بأحكام دينه
 وأخبار الذين تعدوا حدوده ونبذوا أحكام دينه ظهرياً لاجل
 الاعتبار واختيار طريق المحسنين

هذه هي الامور التي احتوى عليها القرآن وفيها حياة
 الناس وسعادتهم الدنيوية والأخروية والفاتحة مشتملة عليها
 اجمالاً بغير ما شك ولا ريب . فاما التوحيد ففي قوله تعالى (الحمد

لله رب العالمين) لانه ناطق بان كل حمد وثناء يصدر عن نعمة ما
فهو له تعالى ولا يصح ذلك الا اذا كان سبحانه مصدر كل
نعمة في الكون تستوجب الحمد ومنها نعمة الخلق والايجاد
والتربية والتنمية ولم يكتف باستلزام العبارة لهذا المعنى فصرح
به بقوله (رب العالمين) ولفظ (رب) ليس معناه المالك
والسيد فقط بل فيه معنى التربية والائتماء وهو صريح
بان كل نعمة يراها الانسان في نفسه وفي الآفاق منه
عز وجل فليس في الكون متصرف بالايجاد والاشقاء
والاسعاد سواه

التوحيد أهم ما جاء لاجله الدين ولذلك لم يكتف في الفاتحة
بمجرد الاشارة اليه بل استكمله بقوله (اياك نعبد و اياك
نستعين) فاجتث بذلك جذور الشرك والوثنية التي كانت
فاشية في جميع الامم وهي اتخاذ اولياء من دون الله تعتقد لهم
السلطة الغيبية ويدعون لذلك من دون الله ويستعان بهم على
قضاء الحوائج في الدنيا ويتقرب بهم الى الله زلفى وجميع ما في
القرآن من آيات التوحيد ومقارعة المشركين هو تفصيل لهذا
الاجمال

واما الوعد والوعيد فالأول منهما مطويٌّ في (بسم الله الرحمن الرحيم) فذكرُ الرحمة في أول الكتاب - وهي التي وسعت كل شيء - وعدُّ بالاحسان لاسيما وقد كررها مرة ثانية تنبيها لنا على أن أمره إيانا بتوحيده وعبادته رحمة منه سبحانه بنا لأنه لمصلحتنا ومنفعتنا . وقوله تعالى (مالك يوم الدين) يتضمن الوعد والوعيد معاً لأن معنى الدين الخضوع أى إن له تعالى في ذلك اليوم السلطان المطلق والسيادة التي لا نزاع فيها لاحقيقة ولا ادعاء وأن العالم كله يكون فيه خاضعاً لعظمته ظاهراً وباطناً يرجو رحمته ويخشى عذابه وهذا يتضمن الوعد والوعيد . أو معنى الدين الجزاء وهو إما ثواب للمحسن واما عقاب للمسيء وذلك وعد ووعيد . وزد على ذلك أنه ذكر بعد ذلك (الصراط المستقيم) وهو الذى من سلكه فازومن تنكبته هلك وذلك يستلزم الوعد والوعيد

وأما العبادة فبعد أن ذكرت في مقام التوحيد بقوله «اياك نعبد واياك نستعين» أوضح معناها بعض الإيضاح بقوله تعالى (اهتدنا الصراط المستقيم) أى أنه قد وضع لنا صراطاً سيبينه ويحدده ويكون مناط السعادة في الاستقامة عليه والشقاء في

الانحراف عنه وهذه الاستقامة عليه هي هداية العبادة ويشبه
 هذا قوله تعالى (والمصر ان الانسان لني خسر الا الذين آمنوا
 وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) فالتواصي
 بالحق والصبر هو كمال العبادة بعد التوحيد . والفاتحة بجملتها
 تنفخ روح العبادة في المتسدر لها وروح العبادة هي إثراب
 القلوب خشية الله وهيبته والرجاء لفضله لا الأعمال المعروفة
 من فعل وكف وحركات اللسان والأعضاء فقد ذكرت العبادة
 في الفاتحة قبل ذكر الصلاة وأحكامها والصيام وأيامه وكانت
 هذه الروح في المسلمين قبل أن يكلفوا بهذه الاعمال البدنية
 وقبل نزول أحكامها التي فصلت في القرآن تفصيلا ما وانما
 الحركات والاعمال مما يتوسل به الى حقيقة العبادة ونخ العبادة
 الفكر والمبرة

وأما الاخبار والقصص ففي قوله تعالى (صراط الذين
 أنعمت عليهم) تصریح بأن هنالك قوما تقدموا وقد شرع الله
 شرائع لهدايتهم وصالح يصيح ألا فانظروا في الشؤون العامة
 التي كانوا عليها واعتبروا بها . كما قال تعالى لنبيه يدعوه الى الاقتداء
 بمن كان قبله من الانبياء (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده)

حيث بين أن القصص إنما هو للعظة والاعتبار . وفي قوله تعالى
 (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) تصريح بأن من دون المنعم
 عليهم فريقان فريق ضلّ عن صراط الله وفريق جاحده وعاند
 من يدعو اليه فكان محموقاً بالغضب الالهي والحزبي في هذه
 الحياة الدنيا . وبقاى القرآن يفصل لنا في أخبار الأمم هذا
 الاجمال على الوجه الذي يفيد العبرة فيشرح حال الظالمين الذين
 قاوموا الحق وحال الذين حافظوا عليه وصبروا على ما أصابهم
 في سبيله .

فتبين من مجموع ما تقدم أن الفاتحة قد اشتملت إجمالاً
 على الأصول التي يفصلها القرآن تفصيلاً فكان انزالها أولاً
 موافقاً لسنة الله تعالى في الابداع . وعلى هذا تكون الفاتحة
 جديرة بأن تسمى (أم الكتاب) كما نقول إن النواة أم النخلة
 فإن النواة مشتملة على شجرة النخلة كلها حقيقة لا كما قال
 بعضهم ان المعنى في ذلك أن الأم تكون أولاً ويأتي بعدها
 الاولاد

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

لا أذكر ما قاله الاستاذ في البسملة من حيث لفظها
واعرابها وهل هي آية أو جزء آية ومن الفاتحة أوليست منها
فان الخلاف في ذلك مشهور وقد اختصر الاستاذ القول فيه
اختصاراً وقال انها على كل حال من القرآن فتتكمم عليها كسائر
الآيات

القرآن امامنا وقدوتنا فافتاحه بهذه الكلمة ارشاد
لنا بأن نفتح اعمالنا بها فما معنى هذا؟ ليس معناه أن نفتح
اعمالنا باسم من أسماء الله تعالى بأن نذكره على سبيل التبرك
أو الاستعانة به بل أن نقول هذه العبارة (بسم الله الرحمن الرحيم)
فإنها مطلوبة لذاتها

عند ما نقول انى اذ كر اسم الله تعالى كالعزيز والحكيم
لا معنى انك تذكر لفظ (اسم) فلو كان قولهم ان المراد من
الابتداء بالكلمة « بسم الله » التبرك باسم الله هو الصواب
لكان ينبغي ان يكون قولك (بالله الرحمن الرحيم) مثل
(بسم الله الرحمن الرحيم) وقوله تعالى (باسم الله مجراها

ومرساها) وقد قال بعضهم إن الاضافة ههنا للبيان أى أفتح
 كلامي باسم هو الله ولكن هذا يقتضى أن يكون لفظ الرحمن
 الرحيم وارداً على اللفظ وهو غير صحيح وإرادة أن الاسماء
 الثلاثة هى المبينة للفظ الاسم تحمل ظاهر فما المقصود اذاً
 من هذا التعبير ؟

مثل هذا التعبير مألوف عند جميع الأمم ومنهم العرب
 وهو أن الواحد منهم اذا أراد أن يفعل أمراً ما لاجل أمير
 أو عظيم بحيث يكون متجرداً من نسبه اليه ومنسلخاً عنه
 يقول أعمله باسم فلان ويذكر اسم ذلك الامر أو السلطان
 لان اسم الشيء دليل وعنوان عليه

فاذا كنت أعمل عملاً لا يكون له وجود ولا عنه أثر، لولا
 السلطان الذى به أمر، أقول إن عملي هذا باسم السلطان أى
 أنه معنون باسمه ولولاه لما عملته. ففى استدعاء عملي (بسم الله
 الرحمن الرحيم) أنتى أعمل بأمره وله لالى ولا اعمله باسمي
 مستقلاً به على انى فلان فكأنى أقول ان هذا العمل لله لا لخط
 نفسي وفيه وجه آخر وهو أن القدرة التى انشأت بها العمل هى
 من الله تعالى فلولا ما منحني منها لم أعمل شيئاً فلم يصدر عنى

هذا العمل الا باسم الله ولم يكن باسمي اذ لولا ما آتاني من القوة عليه لم أستطع أن آتيه وقد تم هذا المعنى بلفظ (الرحمن الرحيم) كما هو ظاهر. وحاصل المعنى أنني أعمل عملي متبرئاً من أن يكون باسمي بل هو باسمه تعالى لأنني استمدت القوة والعناية منه وارجو إحسانه عليه فلولا أنه لم أقدر عليه ولم أعمله بل وما كنت عاملاً له على تقدير القدرة عليه لولا أمره ورجاء فضله فلفظ الاسم معناه مراد ومعنى لفظ الجلالة مراد أيضاً وكذلك كل من لفظ الرحمن والرحيم. وهذا الاستعمال معروف مألوف في كل اللغات واقرب اليك اليوم ما ترونه في المحاكم النظامية حيث يتدوّن الاحكام قولاً وكتابة باسم السلطان فلان أو الخديو فلان ومعنى البسملة في الفاتحة أن جميع ما يقرر في القرآن من الاحكام والآيات وغيرها هو الله ومنه ليس لأحد غير الله فيه شيء

واختصر الاستاذ في الكلام على لفظ اسم ولفظ الجلالة لان الكلام فيهما مشهور. قال والرحمن والرحيم مشتقان من الرحمة وهي معنى يلم بالقلب فيبعث صاحبه ويحمله على الاحسان الى غيره وهو محال على الله تعالى بالمعنى المعروف عند البشر

لأنه في البشر ألم في النفس شفاؤه الاحسان والله تعالى منزه
 عن الآلام والانفعالات فالمعنى المقصود بالنسبة اليه من الرحمة
 أثرها وهو الاحسان . وقد مشى الجلال في تفسيره وتبعه
 الصبان على أن الرحمن والرحيم بمعنى واحد وان الثاني تأكيد
 للأول ومن العجيب أن يصدر مثل هذا القول عن عالم مسلم
 وما هي الا غفلة نسأل الله أن يسامح صاحبها

(قال الاستاذ) وأنا لا أجزئ لمسلم أن يقول في نفسه
 أو بلسانه ان في القران كلمة تغاير اخرى ثم تأتي لمجرد تأكيد
 غيرها بدون ان يكون لها في نفسها معنى تستقل به نعم قد يكون
 في معنى الكلمة ما يزيد معنى الاخرى تقريراً وايضاحاً ولكن
 الذي لا اجزئه ان يكون معنى الكلمة هو عين معنى الاخرى
 بدون زيادة ثم يؤتى بها لمجرد التأكيد لاغير بحيث تكون
 مما يسمى بالترادف في عرف اهل اللغة فان ذلك لا يقع الا
 في كلام من يرمي في لفظه الى مجرد التثنية والتزييق وفي
 العربية طرق للتأكيد ليس هذا منها واما ما يسمونه بالحرف
 الزائد الذي يأتي للتأكيد فهو حرف وضع لذلك ومعناه هو
 التأكيد وليس معناه معنى الكلمة التي يؤكد بها فالباء في قوله تعالى

« وكفي بالله شهيداً » تؤكد معنى اتصال الكفاية بجانب الله جل شأنه بذاتها ومعناها الذي وضعت له ومعنى وصفها بالزيادة أنها كذلك في الاعراب وكذلك معنى من في قوله « وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله » ونحو ذلك . اما التكرار للتأكيد أو التقرير أو التهويل فامر سائغ في ابلغ الكلام عند ما يظهر ذلك القصد منه كتكرار جملة « فبأي آلاء ربكم اتكذبان » ونحوها عقيب ذكر كل نعمة وهي عند التأمل ليست مكررة فان معناها أفهذه النعمة تكذبان وهكذا كل ما جاء في القرآن على هذا النحو

والجمهور على أن معنى الرحمن المنعم بجلال النعم ومعنى الرحيم المنعم بدقائقها وبعضهم يقول أن الرحمن هو المنعم بنعم عامة تشمل الكافرين مع غيرهم والرحيم المنعم بالنعم الخاصة بالمومنين وكل هذا تحكم في اللغة مبني على أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ولكن الزيادة تدل على زيادة الوصف مطلقاً فصفة الرحمن تدل على كثرة الاحسان الذي يعطيه سواء كان جليلاً أو دقيقاً وأما كون افراد الاحسان التي يدل عليها اللفظ الاكثر حروفاً أعظم من افراد الاحسان التي يدل عليها

اللفظ الأقل حروفاً فهو غير معني ولا مراد، وقد قارب من قال ان معنى الرحمن المحسن بالاحسان العام ولكنه أخطأ في تخصيص مدلول الرحيم بالمؤمنين ولعل الذي حمل من قال إن الثاني مؤكداً للاول على قوله هذا هو عدم الاقتناع بما قالوه من التفرقة مع عدم التفطن لما هو أحسن منه

(قال الاستاذ) والذي أقول: ان صيغة فعلان تدل على وصف فعليّ فيه معنى المبالغة كفعال وهو في استعمال اللغة للصفات العارضة كعطشان وغرثان وغضبان وأما صيغة فاعيل فأنها تدل في الاستعمال على المعاني الثابتة كالأخلاق والسيجايا في الناس كعليم وحكيم وحليم وجميل . والقرآن لا يخرج عن الأسلوب العربيّ البليغ في الحكاية عن صفات الله عز وجل التي تملو عن مماثلة صفات المخلوقين فللفظ الرحمن يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل وهي إفاضة النعم والاحسان ولفظ الرحيم يدل على منشأ هذه الرحمة والاحسان وعلى أنها من الصفات الثابتة الواجبة . وبهذا المعنى لا يستغنى بأحد الوصفين عن الآخر ولا يكون الثاني مؤكداً للاول فاذا سمع العربي وصف الله جل ثناؤه بالرحمن وفهم منه انه المقيض للنعم

فعلماً لا يعتقد منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائماً لأن الفعل قد ينقطع اذا كان لم يكن عن صفة لازمة ثابتة وان كان كثيراً فعند ما يسمع لفظ الرحيم يكمل اعتقاده على الوجه الذي يليق بالله تعالى ويرضيه سبحانه ويعلم ان لله صفة ثابتة هي صفة الرحمة التي عنها يكون أثرها وان كانت تلك الصفة على غير مثال صفات المخلوقين ويكون ذكرها بعد الرحمن كذكر الدليل بعد المدلول ليقوم برهاناً عليه

﴿ الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ﴾

تعلمون أن معنى الحمد الثناء باللسان وقيدوه بالجميل لأن كلمة (ثناء) تستعمل في المدح والذم جميعاً يقال أثنى عليه شراً كما يقال أثنى عليه خيراً ويقولون إن (أل) التي في الحمد هي للجنس في أي فرد من أفرادها لا للاستفراق ولا للعهد الخصوص لأنه لا يصر الى كل منهما في فهم الكلام الإبدليل وهو غير موجود في الآية

ومعنى كون الحمد لله تعالى بأى نوع من أنواعه هو أن أى شئ يصح الحمد عليه فهو مصدره واليه مرجعه فالحمد له على كل حال

وهذه الجملة خبرية ولكنها استعملت لإنشاء الحمد .
فأما معنى الخبرية فهو إثبات أن الثناء الجميل في أي أنواعه
تحقق فهو ثابت له تعالى وراجع إليه لأنه متصف بكل ما يحمده
عليه الحامدون فصفاته أجمل الصفات واحسانه عمّ جميع
الكائنات ولأن جميع ما يصح أن يتوجه إليه الحمد مما سواه
فهو منه جلّ ثناؤه اذ هو مصدر الكون كله فيكون له ذلك
الحمد أولاً وبالذات . والخلاصة أن أيّ حمدي توجه الى محمود ما
فهو لله تعالى سواء لاحظته الحامد أو لم يلاحظه وأما معنى
الإنشائية فهو أن الحامد جعلها عبارة عما وجهه من الثناء الى
الله تعالى في الحال « رب العالمين » يشعر هذا الوصف ببيان
وجه الثناء المطلق ومعنى الرب السيد المرابي الذي يسوس
مسوده ويربيه ويدبره و (العالمين) جمع عالم جمعه المذكر
الماقل تليياً وأراد به جميع الكائنات الممكنة أي أنه رب كل
ما يدخل في مفهوم لفظ العالم . وما جمعت العرب لفظ العالم
هذا الجمع الا لتسكتة تلاحظها فيه وهي أن هذا اللفظ لا يطلق
عندهم على كل كائن وموجود كالحجر والتراب وإنما يطلقونه
على كل جملة متميزة لأفرادها صفات تقرّ بها من الماقل الذي

جُمعت جمعه ان لم تكن منه فيقال عالم الانسان وعالم الحيوان
 وعالم النبات . وأتم ترون أن هذه الاشياء هي التي يظهر فيها
 معنى التربية الذي يعطيه لفظ رب لأن فيها مبدأها وهو الحياة
 والتغذي والتوالد وهذا ظاهر في النبات لاسيما لمن يقرأ شيئاً
 من علمه كما هو ظاهر في الحيوان . ولقد كان السيد رحمه الله
 تعالى يقول الحيوان شجرة قطعت رجلها من الارض فهي
 تمشي والشجرة حيوان ساخت رجلاه في الارض فهو قائم
 في مكانه يأكل ويشرب وان كان لا ينام ولا يفعل

« الرحمن الرحيم » تقدم معناها وبقي الكلام في اعادتهما
 والنكته فيها ظاهرة وهي أن تربيته للعالمين ليست حاجة به
 اليهم كحاجب منفعة أو دفع مضرة وانما هي لعموم رحمته وشمول
 إحسانه . وثم نكته أخرى وهي أن البعض يفهم من معنى
 الرب الجبروت والقهر فأراد الله تعالى أن يذكرهم برحمته وإحسانه
 ليجمعوا بين اعتقاد الجلال والجمال فذكر الرحمن وهو المفيض
 للنعم بسعة وتجدد لامنتهى لهما والرحيم الثابت له وصف الرحمة
 لا يزايه أبداً فكان الله تعالى أراد أن يتجيب الى عباده فعرّفهم
 أن ربوبيته لهم ربوبية رحمة واحسان ليعلموا أن هذه الصفة

هي التي ربما يرجع اليها معنى الصفات وليتعلقوا به ويقبلوا على اكتساب مرضاته منسرحة صدورهم مطمئنة قلوبهم ولا ينافي عموم الرحمة وسبقها ما شرعه الله من العقوبات في الدنيا وما أعدّه من العذاب في الآخرة للذين يتعدون الحدود ويبتكرون الحرمات فانه وان سُمِّيَ قهراً بالنسبة لصورته ومظهره فهو في حقيقته وغايته من الرحمة لأن فيه تربية للناس وزجراً لهم عن الوقوع فيما يخرج عن حدود الشريعة الآلية وفي الانحراف عنها شقاؤهم وبلاؤهم وفي الوقوف عندها سمادتهم ونعيمهم والوالد الرؤف يربي ولده بالترغيب فيما ينفعه والاحسان عليه إذا قام به وربما لجأ الى الترهيب والعقوبة إذا اقتضت ذلك الحال والله المثل الأعلى لا إله الا هو واليه يرجعون

﴿ مَلَكٌ يَوْمَ الدِّينِ ﴾

بين الاستاذ أولاً أن في الآية قرائتين وذكر من قرأ (مالك) ومن قرأ ملك والفرق بينهما وقال . قال بعضهم ان قراءة ملك أبلغ لأن هذا اللفظ يفهم منه معنى السلطان والقوة والتدبر وقال آخرون ان القراءة الاخرى أبلغ لان الملك هو الذي يدبر أعمال رعيته العامة ولا تصرف له بشيء من شؤونهم

الخاصة . وإنما تظهر هذه التفرقة في عبد مملوك في مملكة لها سلطان ولا ريب ان مالكة هو الذي يتولى جميع شؤونه دون سلطانه . و (الدين) يطلق في اللغة على المكافأة وورد (كما تدين تدان) وقال الشاعر

ولم يبق سوى العسودا ن دنائم كما دانوا

وعلى الجزاء وهو قريب من معنى المكافأة . وعلى الطاعة وعلى الإخضاع وعلى السياسة يقال (دين فلان فلانا) أي تولى سياسته وهو قريب من معنى الإخضاع وعلى الشريعة وما يؤخذ العباد به من التكاليف . والمناسب هنا من هذه المعاني الجزاء والخضوع

وإنما قال « يوم الدين » ولم يقل (الدين) لتعريفنا بأن للدين يوماً ممتازاً عن سائر الايام وهو اليوم الذي يلقي فيه كل عامل عمله ويوفى جزاءه . ولسائل أن يسأل : أليست كل الايام أيام جزاء وكل ما يلاقه الناس في هذه الحياة من البؤس هو جزاء على تفريطهم في أداء الحقوق والقيام بالواجبات التي عليهم . والجواب بلى إن ايماننا التي نحن فيها قد يقع فيها الجزاء على أعمالنا ولكن ربما لا يظهر لاربابه الا على بعضها دون جميعها .

والجزاء على التفريط في العمل الواجب انما يظهر في الدنيا
ظهوراً تاماً بالنسبة لمجموع الأمة لا لكل فرد من الافراد فما
من أمة انحرفت عن صراط الله المستقيم ولم ترع سنته في
خليقته الا وأحل بها العدل الالهي ما تستحق من الجزاء كالفقير
والذل وفقد العزة والسلطة . واما الافراد فاننا نرى كثيراً من
المسرفين الظالمين يقضون أعمارهم منغمسين في الشهوات واللذات
نعم ان ضمايرهم توبخهم أحيانا وأنهم لا يسلمون من المنغصات
وقد يصيبهم النقص في أموالهم وعافية أبدانهم وقوة عقولهم
ولكن هذا كله لا يقابل بعض أعمالهم القبيحة لاسيما الملوك
والامراء الذين تشقى بأعمالهم السيئة أممٌ وشعوب كذلك نرى
من المحسنين في أنفسهم وللناس من يبتلى بهضم الحقوق ولا
ينال من الجزاء على عمله شيئاً مما يستحقه وان كان قد ينال
من الجزاء رضى نفسه وسلامة اخلاقه وصحة ملكاته ولكن
ذلك ليس كل ما يستحق . وفي ذلك اليوم يوفى كل فرد من
أفراد العالمين جزاءه كاملاً لا ينقصه شيء منه كما قال الله تعالى
« فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة
شراً يره »

علمنا الله تعالى انه رحمن رحيم ليجذب قلوبنا اليه
ولكن هل يشعر كل عباده بهذه المنة فينجذبوا اليه الانجذاب
المطلوب؟ كلا أليس فينا من يسلك كل سبيل لا يبالي بمستقيم
ومعوج؟ بلى ولهذا أعقب سبحانه ذكر الرحمة بذكر الدين
فعرفنا انه يدين العباد ويجازيهم على أعمالهم فكان من رحمته
بعباده أن ربّاهم بنوعي التربية كليهما الترغيب والترهيب كما تشهد
بذلك آيات القرآن الكثيرة « نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .
وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ

﴿ إِيَّاكَ تَعْبُدُوْا إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

ماهي العبادة؟ يقولون هي الطاعة مع غاية الخضوع وما
كل عبارة تمثل المعنى تمام التمثيل، وتجليه للافهام واضعاً لا يقبل
التأويل، فكثيراً ما يفسرون الشيء ببعض لوازمه ويعرّفون
الحقيقة برسومها بل يكتبون أحياناً بالتعريف اللفظي وبينون
الكلمة بما يقرب من معناها ومن ذلك هذه العبارة التي
شرحوا بها معنى العبادة فإن فيها اجمالاً وتساهاً . وانما اذا
تبعنا آي القرآن وأساليب اللغة واستعمال العرب لعبد وما يماثلها
ويقاربها في المعنى نخضع وخنع وأطاع وذلك نجد أنه لا شيء

من هذه الالفاظ يضا هي (عبد) ويحل محلها ويقع موقعها
ولذلك قالوا ان لفظ (العباد) مأخوذ من العبادة فتكثر اضافته
الى الله تعالى ولفظ (العبيد) تكثر اضافة الى غير الله تعالى
لانه مأخوذ من العبودية بمعنى الرق وفرق بين العبادة
والعبودية بذلك المعنى ومن هنا قال بعض العلماء ان العبادة
لا تكون في اللغة الا لله تعالى ولكن استعمال القرآن يخالفه .
يغلو العاشق في تعظيم معشوقه والخضوع له غلوا كبيرا حتى يفنى
هواه في هواه وتذوب إرادته في إرادته ومع ذلك لا يسي
خضوعه هذا عبادة بالحقيقة ويبالغ كثير من الناس في تعظيم
الرؤساء والملوك والامراء فترى من خضوعهم لهم وتحريرهم
مرضاتهم ما لا تراه من المتحنتين القانتين فضلا عن سائر
العابدين ولم يكن العرب يسمون شيئا من هذا الخضوع عبادة
فما هي العبادة إذا ؟ تدل الاساليب الصحيحة والاستعمال
العربي الصراح على ان العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد
النهاية ناشئ عن استشعار القلب عظمة للمعبود لا يعرف
منشأها . واعتقاده بسلطته لا يدرك كنهها وما هيها . وقصارى
ما يعرفه منها انها محيطة به ولكنها فوق ادراكه . فمن ينتهي

الى أقصى الذل للملك من الملوك لا يقال إنه عبده وإن قبل مواعظ
 أقدامه مادام سبب الذل والخضوع معروفاً وهو الخوف من
 ظلمه الممهود. أو الرجاء بكرمه المحدود. اللهم الا بالنسبة للذين
 يعتقدون أن الملك قوة غيبية سماوية أفيضت على الملوك من
 الملأ الأعلى واختارتهم للاستعلاء على سائر أهل الدنيا، لأنهم
 أطيب عنصراً، وأكرم جوهرأً، وهؤلاء هم الذين انتهى بهم
 هذا الاعتقاد، الى الكفر والإلحاد، فاتخذوا الملوك آلهة وأرباباً
 وعبدوهم عبادة حقيقية. للعبادة صور كثيرة في كل دين من
 الأديان شرعت لتذكير الإنسان بذلك الشعور بالسلطان الإلهي
 الاعلى الذي هو روح العبادة وسرّها ولكل عبادة من العبادات
 الصحيحة أثر في تقويم أخلاق القائم بها وتهذيب نفسه والأثر
 إنما يكون عن ذلك الروح والشعور الذي قلنا انه منشأ التعظيم
 والخضوع فاذا وجدت صورة العبادة خالية من هذا المعنى لم تكن
 عبادة كما أن صورة الانسان وتمثاله ليس انساناً

خذ اليك عبادة الصلاة مثلاً وانظر كيف أمر الله
 بإقامتها دون مجرد الاتيان بها واقامة الشيء هي الاتيان به مقوماً
 كاملاً يصدر عن علته وتصدر عنه آثاره. وآثار الصلاة ونتائجها

هي ما أنبأنا الله تعالى بها بقوله « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وقوله عز وجل « إن الانسان خلق هلوأ اذا مسه الشركان جزوعا واذا مسه الخير منوعاً الا المصلين » وقد توعد الذين يأتون بصورة الصلاة من الحركات والالفاظ مع السهو عن معنى العبادة وسرها فيها المؤدي الى غايتها بقوله « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون » فسماعهم مصلين لانهم أتوا بصورة الصلاة ووصفهم بالسهو عن الصلاة الحقيقية التي هي توجه القلب الى الله تعالى المذكور بحشيته والمشعر للقلوب بعظيم سلطانه ثم وصفهم باثر هذا السهو وهو الرياء ومنع الماعون . وذكر الاستاذ أن الرياء ضربان رياء النفاق وهو العمل لاجل رؤية الناس ورياء العادة وهو العمل بحكمها من غير ملاحظة معنى العمل وسره وفائدته ولا ملاحظة من يعمل له ويتقرب اليه به وهو ما عليه أكثر الناس فإن صلاة أحدهم في طور الرشد والعقل هي عين ما كان يحاكي به أباه في طور الطفولية عند ما يراه يصلي — يستمر على ذلك بحكم العادة من غير فهم ولا عقل وليس لله شيء في هذه الصلاة . وقد ورد في أحاديث كثيرة أن من لم

تسبب صلواته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً وأنها
تلف كما يلف الثوب البالي ويضرب بها وجهه. وأما الماعون
فهو المعونة والخير الذي تقدم في الآية الاخرى أن من شأن
الانسان أن يكون منوعاً له الا المصلين

والاستعانة هي طلب المعونة والمعونة هي سيد العجز
والمساعدة على اتمام العمل الذي يعجز عنه المستعين بنفسه
ثم تكلم الاستاذ على حصر العبادة والاستعانة في الله
تعالى الذي دل عليه تقديم المفعول (اياك) على الفعل فقال
ما مثله

أمرنا الله تعالى بان لا نعبد غيره لان السلطة الغيبية التي
هي وراء الاسباب ليست الا له دون غيره فلا يشاركه فيها أحد
فيعظم تعظيم العبادة وأمرنا بان لا نستعين بغيره أيضاً وهذا
يحتاج الى البيان لانه أمرنا أيضاً في آيات أخرى بالتعاون
« وتعاونوا على البر والتقوى » فما معنى الاستعانة به مع ذلك ؟
الجواب أن كل عمل يعمله الانسان تتوقف ثمرته ونجاحه
على حصول الاسباب التي اقتضت الحكمة الالهية أن تكون
مؤديةً اليه وانتفاء الموانع التي من شأنها بمقتضى الحكمة أن

تحول دونه وقد مكّن الله تعالى الانسان بما أعطاه من العلم والقوة من دفع بعض الموانع وكسب بعض الاسباب وحجب عنه البعض الآخر فيجب علينا أن نقوم بما في استطاعتنا من ذلك ونبدل في إتقان أعمالنا كل ما نستطيع من حول وقوة وأن نتعاون ويساعد بعضنا بعضاً على ذلك ونفوض الأمر فيما وراء كسبنا الى القادر على كل شيء ونلجأ اليه وحده ونطلب المعونة المتممة للعمل والموصلة لثمرته منه سبحانه دون سواه إذ لا يقدر على ما وراء الاسباب الممنوحة لكل البشر على السواء إلا مسبب الاسباب ورب الارباب فقوله تعالى « واياك نستعين » متم لمعنى قوله « اياك نعبد » لان الاستعانة بهذا المعنى فزع من القلب الى الله وتعلق من النفس به وذلك من منح العباد فاذا توجه العبد بها الى غير الله تعالى كانت ضرباً من ضروب العبادة الوثنية التي كانت دائمة في زمن التنزيل وقبله وخصت بالذكر لثلاثتهم الجهلاء أن الاستعانة بمن اتخذوهم اولياء من دون الله واستعانوا بهم فيما وراء الاسباب المكتسبة لعامة الناس هي كالاستعانة بسائر الناس في الاسباب العامة فأراد الحق جل شأنه ان يرفع هذا

اللبس عن عباده ببيان ان الاستعانة فيما هو في استطاعة الناس
 بالناس انما هي ضرب من استعمال الاسباب المسنونة وما منزلتها
 الا كمنزلة استعمال الآلات فيما هي آلات له بخلاف الاستعانة في
 شؤون نفوت القدر والقوى المعروفة في متناول الفهم كالاستعانة
 على شفاء المرض بما وراء الدواء وعلى غلبة العدو بما وراء العدة
 والعدة فان ذلك مما لا يجوز الفزع به لغير الله تعالى صاحب
 السلطان الاعظم على ما لا يصل اليه سلطان احد من العالم
 و ضرب الاستاذ مثلاً الزارع يبذل جهده في الحرث
 والعنق وتسميد الارض وريتها ويستعين بالله تعالى على إتمام
 ذلك بمنع الآفات والجوائح السماوية أو الارضية ومثل بالتاجر
 يحدق في اختيار الاصناف ويمهر في صناعة الترويج ثم يتكل على
 الله فيما بعد ذلك ثم قال ومن هنا تعلمون أن الذين يستعينون
 باصحاب الاضرحة والقبور على قضاء حوائجهم وتيسير أمورهم
 وشفاء أمراضهم ونماء حرثهم وزرعهم وهلاك أعدائهم وغير
 ذلك من المصالح عن صراط التوحيد نا كيون، وعن ذكر
 الله معرضون

أرشدتنا هذه الكلمة الوجيزة «واياك نستعين» الى

أمرين عظيمين هما معراج السعادة في الدنيا والآخرة . أحدهما
 أن نعمل الاعمال النافعة ونجتهد في إتقانها ما استطعنا لأن
 طلب المعونة لا يكون الا على عمل بذل فيه المرء طاقته فلم
 يوفه حقه أو يخشى أن لا ينجح فيه فطلب المعونة على إتمامه وإكمالها
 ومن وقع من يده القلم على المكتب لا يطلب المعونة من أحد
 على امساكه ومن وقع تحت عبءٍ ثَقِيلٍ يعجز عن النهوض به
 وحده يطلب المعونة من غيره على رفعه بعد استفراغ القوة في
 الاستقلال به وهذا الامر هو مرعاة السعادة الدنيوية وركن
 من اركان السعادة الاخرية . وثانيهما ما أفاده الحصر من وجوب
 تخصيص الاستعانة بالله تعالى وحده فيما وراء ذلك وهو روح
 الدين وكمال التوحيد الخالص الذي يرفع نفوس معتقديه ويخلصها
 من رق الاغيار ويفتك إرادتهم من أسر الرؤساء الروحانيين .
 والشيوخ الدجالين ، ويُطلق عزائمهم من قيد المهيمين الكاذبين .
 من الاحياء والميتين ، فيكون المؤمن مع الناس حراً خالصاً
 وسيداً كريماً . ومع الله عبداً خاضعاً « ومن يطع الله ورسوله
 فقد فاز فوزاً عظيماً »

﴿ إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

ذكر الاستاذ أولاً مآقوله في معنى الهداية لغة من أنها الدلالة بلطف على ما يوصل الى المطلوب ثم بين أنواعها ومراتبها فقال ما مثاله . منح الله تعالى الانسان أربع هدايات يتوصل بها الى سعادته (اولها) هداية الوجدان الطبيعي والإلهام الفطري وتكون للاطفال منذ ولادتهم فان الطفل بعد ما يولد يشعر بألم الحاجة الى الغذاء فيصرخ طالباً له بفطرتة وعند ما يصل الثدي الى فيه يلهم التقامه وامتصاصه (الثانية) هداية الحواس والمشاعر وهي متممة للهداية الاولى في الحياة الحيوانية ويشترك الانسان فيهما الحيوان الاعجم بل هو فيهما أكمل من الانسان فان حواس الحيوان وإلهامه بكامله بعد ولادته بقليل بخلاف الانسان فان ذلك يكمل فيه بالتدرج في زمن غير قصير الأترام عقيب الولادة لا تظهر عليه علامات دراك الاصوات والمرئيات ثم بعد مدة يبصر ولكنه لقصر نظره يجهل تحديد المسافات فيحسب البعيد قريباً فيمديديه اليه لتتناوله وإن كان قمر السماء ولا يزال يغلط حسه حتى في طور الكمال

(الثالثة) هداية العقل . خلق الانسان ليعيش مجتمعاً ولم

يعط من الالهام والوجدان ما يكفي مع الحس الظاهر لهذه الحياة الاجتماعية كما أعطي النحل والنمل فان الله قد منحها من الالهام ما يكفيها لان تعيش مجتمعة يؤدي كل واحد منها وظيفة العمل لجميعها ويؤدي الجميع وظيفة العمل للواحد وبذلك قامت حياة أنواعها كما هو مشاهد

أما الانسان فلم يكن من خاصة نوعه أن يتوفر له مثل ذلك الالهام فباه الله هداية هي أعلى من هداية الحس والالهام وهي العقل الذي يصحح غلط الحواس والمشاعر ويبين أسبابه وذلك أن البصر يرى الكبير على البعد صغيراً ويرى العود المستقيم في الماء معوجاً والصفراوي يذوق الحلو مرّاً والعقل هو الذي يحكم بفساد هذا الادراك

(الهداية الرابعة الدين) يغلط العقل في إدراكه كما تغلط الحواس وقد يهمل الانسان استخدام حواسه وعقله فيما فيه سمادته الشخصية والتنوعية ويسلك بهذه الهدايات مسالك الضلال فيجعلها مسخرة لشهواته ولذاته حتى تورده موارد الهلكة . فاذا وقعت المشاعر في مزلق الزلل ، واستترقت الحظوظ والاهواء العقل فصار يستنبط لها ضروب الخيل ،

فكيف يتسنى للإنسان مع ذلك أن يعيش سعيداً؟ وهذه الحظوظ والأهواء ليس لها حد يقف الإنسان عنده وما هو بعاش وحده وكثيراً ما تتناول به إلى ما في يد غيره فهي لهذا تقضي أن يعدو بعض أفرادها على بعض فيتنازعون ويتدافعون ويتجادلون ويتجادون ويتواثبون ويتناهبون حتى يفني بعضهم بعضاً ولا تعني عنهم تلك الهدايا شيئاً فاحتاجوا إلى هداية ترشدهم في ظلمات أهوائهم إذا غلبت على عقولهم وتبين لهم حدود أعمالهم ليقفوا عندها ويكفوا أيديهم عما وراءها. ثم إن مما أودع في غرائز الإنسان الشعور بسلطة غيبية متسلطة على الأكوان ينسب إليها كل ما لا يعرف له سبباً لأنها هي الواهبة كل موجود ما به قوام وجوده وبأن له حياة وراء هذه الحياة المحدودة فهل يستطيع أن يصل بتلك الهدايا الثلاث إلى تحديد ما يجب عليه لصاحب تلك السلطة الذي خلقه وسواه ووجهه هذه الهدايا وغيرها وما فيه سعادته في تلك الحياة الثانية. كلا إنه في أشد الحاجة إلى هذه الهداية الرابعة — الدين — وقد منحه الله تعالى إياها

أشار القرآن إلى أنواع الهداية التي وهبها الله تعالى للإنسان

في آيات كثيرة منها قوله تعالى « وهديناه النجدين » أى طريقى
 السعادة والشقاوة والخير والشر . قال الاستاذ : وهذه تشمل
 هداية الخواص الظاهرة والباطنة وهداية العقل وهداية الدين .
 ومنها قوله تعالى « وأما نمود فهديناهم فاستجبوا لعمى على
 الهدى » أى دللناهم على طريق الخير والشر فسلكوا سبل
 الشر المعبر عنه بالعمى . وذكر غير هاتين الآيتين مما فى معناها
 ثم قال

ولكن بقي معنا هداية أخرى وهي المعبر عنها بقوله تعالى
 « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » فليس المراد من
 هذه الهداية ما سبق ذكره فالهداية فى الآيات السابقة بمعنى
 الدلالة وهي بمنزلة إيقاف الإنسان على رأس الطريقين
 المهلك والمنجى مع بيان ما يؤدى إليه كل منهما وهي مما
 تفضل الله به على جميع أفراد البشر أما هذه الهداية فهي أخص
 من تلك والمراد بها إغائتهم وتوفيقهم للسير فى طريق الخير
 والنجاة مع الدلالة وهي لم تكن ممنوحة لكل أحد كالخواص
 والعقول وشرع الدين ^(١)

(١) هذا الفرق بين معني الهداية معروف فى اللغة وبه يجاب عن

ولما كان الانسان عرضة للخطأ والضلال في فهم الدين
وفي استعمال الحواس والعقل على ما قدمنا كان محتاجاً الى
المعونة الخاصة فأمرنا الله بطلبها منه في قوله « إِهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ » فمعنى (اهدنا الصراط المستقيم) دلنا دلالة تصحبها
معونة غيبية من لدنك تحفظنا بها من الضلال والخطأ .
وما كان هذا أول دعاء علمنا الله تعالى إياه الا لأن حاجتنا
إليه أشد من حاجتنا الى كل شئ سواه

ثم بين معنى الصراط (وهو الطريق) واشتقاقه وقرآءة
السرط بالسين المهملة واشتقاقها على نحو ما في كتب اللغة
والتفسير ومعنى المستقيم وهو ضد المموج وقال : ليس المراد
بمقابل المستقيم المموج ذا المتمعج والتعارج بل المراد كل ما فيه
انحراف عن الغاية التي يجب أن ينتهي اليها . والمستقيم في عرف

التناقض الظاهري في قوله تعالى (وانك تهدي الى صراط مستقيم) وقوله
تعالى (انك لاتهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) وقوله
تعالى (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء) فالهداية التي
أثبتها للنبي صلى الله عليه وسلم هي الدلالة على الخير والحق والتي نفاها
عنه هي الثانية التي بمعنى الاعانة والتوفيق

الهندسة أقرب موصل بين طرفين وهذا المعنى لازم للمعنى اللغوي كما هو ظاهر بالبداية وإنما قلنا إن المراد بمقابل المستقيم كل ما فيه انحراف لأن كل من يميل ويحرف عن الجادة يكون أضل عن الغاية ممن يسير عليها في خطّ ذي تعاريج لأن هذا الأخير قد يصل الى الغاية بعد زمن طويل ولكن الأول لا يصل اليها قط بل يزداد بعداً كلما أوغل في السير وانهمك فيه

وقد قالوا إن المراد بالصراط المستقيم الدين أو الحق أو العدل والحدود ونحن نقول إنه جملة ما يوصلنا الى سعادتي الدنيا والآخرة من عقائد وآداب وأحكام وتعاليم. لمَ سُمِّيَ الموصل الى السعادة من ذلك صراطاً وطريقاً؟ خذ الحق مثلاً وهو الاعتقاد الصحيح بالله وبالنبوة وبأحوال الكون والناس ترَ معنى الصراط فيه واضحاً لأن السبيل أو الصراط هو ما أسلكه وأسير فيه لبلوغ الغاية التي أقصدها. كذلك الحق الذي يبين لي الواقع في العقيدة الصحيحة هو كالجادة بين السبل المتفرقة المضلة فالطريق الواضح للحس، يشبهه الحق للعقل والنفس، سير حسي، وسير معنوي. كذلك إذا اعتبرت

المعنى في الحدود والأحكام تجده واضحاً - فُتِمَّتْ أَحْكَامُ
 الأعمال إلى واجب ومندوب ومباح ومحرم ومكروه فكان
 هذا مريحاً لنا من تمييز الخير من الشر بأنفسنا واجتهادنا في بيان
 الأحكام بالهداية الكبرى وهي الدين كالطريق الواضح يسلك
 بالعمل . ومع هذا تجد الشهوات تتلاعب بالأحكام وترجعها
 إلى أهوائها كما يصرف السفهاء عقولهم وحواسهم فيما يرددهم
 وهذا التلاعب بالدين إنما يصدر من علمائه . وضرب لذلك
 مثلاً أحد الشيوخ المتفقيين سرق كتاباً من وقف أحد الأروقة
 في الأزهر مستحلاً له بحجة أن قصد الواقف الانتفاع به وهو
 يحصل بوجود الكتاب عنده وقد يفوت النفع ببقائه في الرواق
 حيث وضعه الواقف . واستحلال المحرمات بمثل هذا التأويل
 ليس بقابل ولذلك كان الإنسان محتاجاً أشد الاحتياج إلى
 العناية الإلهية الخاصة لأجل الاستقامة والسير في تلك الهدايات
 الأربع سيراً مستقيماً يوصل إلى السعادة لهذا نبهنا الله جل
 شأنه إلى أن نلجأ إليه ونسأله الهداية ليكون عوناً لنا ينصرنا
 على أهوائنا وشهواتنا وأن تكون استعانتنا في ذلك به لا بسواه
 بعد أن نبذل ما نستطيع من الفكر والجهاد في معرفة ما أنزل

الينا من الشريعة والأحكام وأخذ أنفسنا بما نعلم من ذلك .
وهذا أفضل ما نطلب فيه المعونة منه جل شأنه لاشتماله على
خيرى الدنيا والآخرة فهو بهذه الآية يعلمنا كيف نستعين
بعد أن علمنا اختصاصه بالاستعانة في قوله وإياك نستعين

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾

(غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

الصراط المستقيم هو الموصل الى الحق ولكنه ما بينه
بذلك كما بينه في نحو سورة العصر (وتلا الاستاذ السورة
وتكلم عليها كلاماً موجزاً) وإنما بينه بإضافته الى من سلك هذا
الصراط كما قال « فبهدهم اقتده » وقد قلنا إن الفاتحة مشتملة على
إجمال ما فصل في القرآن حتى من الأخبار التي هي مثل الذكري
والاعتبار ، ونبوع العظة والاستبصار ، وأخبار القرآن كلها
تنطوي في إجمال هذه الآية

فسر بعضهم المنعم عليهم بالمسلمين والمغضوب عليهم باليهود
والضالين بالنصارى . ونحن نقول إن الفاتحة أول سورة نزلت
كما قال الأمام علي رضى الله عنه وهو أعلم بهذا من غيره لأنه
ترى في حجر النبي صلى الله عليه وسلم وأول من آمن به وإن لم

تكن أول سورة على الأطلاق فلا خلاف في أنها من أوائل
السور (كما مر في المقدمة) ولم يكن المسلمون في أول نزول
الوحي بحيث يطلب الاهتداء بهداهم وماهداهم الآ من
الوحي ثم هم المأمورون بأن يسألوا الله أن يهديهم هذا السبيل
سبيل من أنعم الله عليهم فاولئك غيرهم وإنما المراد بهذا ما جاء
في قوله تعالى « فهداهم اقتده » وهم الذين أنعم الله عليهم من
النبیین والصدیقین والشهداء والصالحین من الأمم السالفة .
فقد أحال على معلوم أجمله في الفاتحة وفصله في سائر القرآن
بقدر الحاجة فثلاثة أرباع القرآن تقريباً قصص وتوجيه للأنظار
الى الاعتبار بأحوال الأمم في كفرهم وإيمانهم وشقاوتهم وسعادتهم
ولا شيء يهدي الأنسان كالمثلات والوقائع فاذا امثلنا الامر
والارشاد ونظرنا في أحوال الأمم السالفة وأسباب علمهم
وجهلهم وقوتهم وضعفهم وعزهم وذلمهم وغير ذلك مما يعرض
للأمم كان لهذا النظر أثر في نفوسنا يحملنا على حسن الاسوة
والاقتداء بأخيار تلك الأمم فيما كان سبب السعادة والتمسك
في الارض واجتناب ما كان سبب الشقاوة أو الهلاك والدمار .
ومن هنا ينبغي للماقل شأن علم التاريخ وما فيه من الفوائد

والثمرات وتأخذ الدهشة والحيرة اذا سمع أن كثيراً من رجال الدين من أمة هذا كتابها يعادون التاريخ باسم الدين ويرغبون عنه ويقولون إنه لا حاجة اليه ولا فائدة له . وكيف لا يدهش ويحار والقرآن ينادي بأن معرفة أحوال الأمم من أهم ما يدعو اليه هذا الدين « وَيَسْتَمْعِلُونَكَ بِالسِّيئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ »

وههنا سؤال وهو كيف يأمرنا الله تعالى باتباع صراط من تقدمنا وعندنا أحكام وارشادات لم تكن عندهم وبذلك كانت شريعتنا أكل من شرائعهم وأصلح لزماننا وما بعده؛ والقرآن يبين لنا الجواب وهو أنه يصرح بأن دين الله في جميع الأمم واحد وإنما تختلف الأحكام بالفروع التي تختلف باختلاف الزمان وأما الأصول فلا خلاف فيها . قال تعالى « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » الآية وقال تعالى « إِنَّا وَحِينَا إِلَيْكَ كَمَا وَحِينَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ » الآية . فالاعتقاد بالله وبالنبوة وبترك الشر وبعمل البر والتخلق بالاخلاق الفاضلة مستو في الجميع وقد أمرنا الله بالنظر فيما كانوا عليه والاعتبار بما صاروا اليه فنتمدي بهم في القيام على أصول الخير وهو أمر

يتضمن الدليل على أن في ذلك الخير والسعادة على حسب
طريقة القرآن في قرن الدليل بالمدلول والعلّة بالمعلول والجمع بين
السبب والمسبب . وتفصيل الاحكام التي هذه كلياتها بالأجمال
نعرفه من شرعنا ونبينا عليه الصلاة والسلام
وأما قوله تعالى « غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ » فالمنضوب
عليهم هم الذين خرجوا عن الحق بعد علمهم به والذين بلغهم
شرع الله تعالى ودينه فرفضوه ولم يتقبلوه انصرفا عن الدليل ،
ورضى بما ورثوه من القيل ، ووقوفاً عند التقليد ، وعكوفاً على
هوى غير رشيد ، وغضب الله عقوبته وانتقامه . وقوله
« وَلَا الضَّالِّينَ » قرن المعطوف فيه بلا لما في (غير) من معنى
النفي أي وغير الضالين ففيه تأكيد للنفي . وهو يدل على أن
الطوائف ثلاث المنعم عليهم والمغضوب عليهم والضالون ولا
شك أن المغضوب عليهم ضالون أيضاً لأنهم بنذم الحق وراء
ظهورهم قد استدبروا الغاية واستقبلوا غير وجهها فلا يصلون
الى مطلوب ، ولا يهتدون الى مرغوب ، ولكن فرقا
بين من عرف الحق فاعرض عنه على علم وبين من لم يظهر
له الحق فهو نائه بين الطرق لا يهتدي الى الجادة فيها وهم من لم

تبلغهم الرسالة أو بلغتهم على وجه لم يتبين لهم فيه الحق فهؤلاء هم أحق باسم الضالين فان الضال حقيقة هو التائه الواقع في عماية لا يهتدي معها الى المطلوب والعماية في الدين هي الشبهات التي تلبس الحق بالباطل وتشبه الصواب بالخطأ

والضالون على أقسام (الاول) من لم تبلغهم الدعوة الى الرسالة أو بلغتهم على وجه لا يسوق الى النظر فهؤلاء لم يتوفر لهم من أنواع الهداية سوى ما يحصل بالحس والعقل وحرموا رشد الدين فان لم يضلوا في شؤونهم الدنيوية ضلوا لاحتمال فيما تطالب به نجات الارواح وسعادتها في الحياة الاخرى على ان من شأن الدين الصحيح ان يفيض على أهله من روح الحياة مابه يسعدون في الدنيا والآخرة معاً فمن حرم الدين حرم السعاداتين وظهر أثر التخبط والاضطراب في أعماله المعاشية وحل به من الرزايا ما يتبع الضلال واخلط عادة سنة الله في هذا العالم ولن تجد لسنة تبديلاً . أما أمرهم في الآخرة فعلى أنهم لن يساؤوا المهتدين في منازلهم وقد يعفو الله عنهم وهو الفعال لما يريد

(القسم الثاني) من بلغته الدعوة على وجه يبعث على النظر فساق همته اليه واستفرغ جهده فيه ولكن لم يوفق الى

الاعتقاد بما دعي اليه وانقضى عمره وهو في الطلب وهذا القسم
 لا يكون الا أفراداً متفرقة في الأئمة ولا يعم حاله شعباً من
 الشعوب فلا يظهر له أثر في أحوالها العامة وما يكون لها من
 سعادة وشقاء في حياتهم الدنيا أما صاحب هذه الحالة فقد ذهب
 ببعض الاشاعرة الى أنه ممن يرجى له رحمة الله تعالى وينقل
 صاحب هذا الرأي مثله عن أبي الحسن الأشعري وعلى رأي
 الجمهور فلا ريب أن مؤاخذته أخف من مؤاخذة الجاحد الذي
 استعصى على الدليل وكفر بنعمة العقل ورضي بحظه من الجهل
 (القسم الثالث) من بلغتهم الرسالة وصدقوا بها بدون
 نظر في أدلتها ولا وقوف على أصولها فاتبعوا أهواءهم في فهم
 ما جاءت به في أصول العقائد وهؤلاء هم المبتدعة في كل دين
 ومنهم المبتدعون في دين الاسلام وهم المنحرفون في اعتقادهم
 عما تدل عليه جملة القرآن وما كان عليه السلف الصالح وأهل
 الصدر الاول ففرقوا الاممة الى مشارب ينص بمآبها الوارد
 ولا يرتوي منها الشارب وإني أشير الى طرف من آثارهم في
 الناس . يأتي الرجل الى دوائر القضاء فيستحلف بالله العلي
 العظيم أو بالمصحف الكريم وهو كلام الله القديم أنه ما فعل

كذا فيحلف وعلامة الكذب بادية على وجهه فيأتيه المستحلف من طريق آخر ويحمله على الحلف بشيخ من المشايخ الذين يعتقد بهم فيتغير لونه وتضطرب أركانه ثم يرجع في آيته ويقول الحق ويقر بأنه فعل ما حلف عليه أولاً أنه لم يفعله تكريماً لاسم ذلك الشيخ وخوفاً منه أن يسلب عنه نعمة أو يحذل به نعمة إذا حلف باسمه كاذباً (ثم ذكر الاستاذ وقائع كثيرة من ذلك) فهذا ضلال في أصول العقيدة يرجع الى الضلال في الاعتقاد بالله وما يجب له من الوجدانية في الافعال ولو أردنا أن نسرده ما وقع فيه المسلمون من الضلال في العقائد الاصلية بسبب البدع التي عرضت على دين الاسلام لطال المقال واحتيج الى وضع مجلدات في وجوه الضلال

ومن أشنعها أثراً وأشدّها ضرراً خوض رؤساء الفرق منهم في مسائل القضاء والقدر والاختيار والجبر وتحقيق الوعد والوعيد وتهوين مخالفة الله على نفوس العبيد

إذا وزنا ما في آدم غننا من الاعتقادات بكتاب الله تعالى من غير أن ندخلها فيه أولاً يظهر لنا كوننا مهتدين أو ضالين .
وأما إذا أدخلنا ما في آدم غننا في القرآن وحشرنا بها فيه أولاً

فلا يمكننا أن نعرف الهداية من الضلال لاختلاط الموزون بالميزان فلا يدري ماهو الموزون من الموزون به . أريد أنه يجب أن يكون القرآن أصلاً تحمل عليه المذاهب والآراء في الدين لأن تكون المذاهب أصلاً والقرآن هو الذي يحمل عليها ويرجع بالتأويل أو التحريف إليها . كما جرى عليه المخذولون وناه فيه الضالون

(القسم الرابع) ضلال في الاعمال وتحريف للاحكام عما وضعت له كالخطأ في فهم معنى الصلاة والصيام وجميع العبادات والخطأ في فهم الاحكام التي جاءت في المعاملات ولنضرب لذلك مثلاً الاحتيال في الزكاة بتحويل المال الى ملك الغير قبل حلول الحول ثم استراداده بعد مضي قليل من الحول الثاني حتى لا تجب الزكاة فيه وظنّ المحتال أنه بحيلته قد خلص من أداء الفريضة ونجا من غضب من لا تخفى عليه خافية ولا يعلم أنه بذلك قد هدم ركناً من أهم أركان دينه وجاء بعمل من يعتقد أن الله قد فرض فرضاً وشرع بجانب ذلك الفرض ما يذهب به ويمحو أثره وهو محال عليه جل شأنه — ثلاثة أقسام من هذا الضلال اولها وثالثها ورابعها يظهر أثرها في الامم فتختل

قوى الادراك فيها وتفسد الأخلاق وتضطرب الاعمال ويحل
 بها الشقاء عقوبة من الله لا بد من نزولها بهم سنة الله في خلقه
 ولن تجد لسنة تحويلاً . ويمدّ حلول الضعف ونزول البلاء
 بامة من الامم من العلامات والدلائل على غضب الله تعالى
 عليها لما أحدثته في عقائد ها و أعمالها مما يخالف سنته ولا يتبع فيه
 سنته . لهذا علمنا الله تعالى كيف ندعوه بان يهدينا طريق الذين
 ظهرت نعمته عليهم بالوقوف عند حدوده وتقويم العقول والاعمال
 بفهم ما هدانا اليه وأن يجنبنا طرق او ائتك الذين ظهرت فيهم
 آثار نعمة بالانحراف عن شرائعه سواء كان ذلك عمداً وعناداً
 أو غواية وضلالاً

واعلموا أن الامة اذا ضلت سبيل الحق ولعب الباطل
 باهوائها ففسدت أخلاقها واعتلت اعمالها وقعت في الشقاء
 لا محالة وسلط الله عليها من يستذلها ويستأثر بشؤونها ولا يؤخر لها
 العذاب الى يوم الحساب وان كانت ستلاقي نصيبها منه أيضاً
 فاذا تمادى بها النغي وصل بها الى الهلاك ومحي أثرها من الوجود
 لهذا علمنا الله تعالى كيف ننظر في احوال من سبقنا ومن بقيت
 آثارهم بين أيدينا من الامم لنعبر ونميز بين ما به تسعد الاقوام

وما به تشقى . أما في الافراد فلم تجر سنة الله بلزوم العقوبة لكل ضال في هذه الحياة الدنيا فقد يستدرج الضالُّ من حيث لا يعلم ويدركه الموت قبل أن تزول النعمة عنه وانما يلقي جزاءه « يوم لا تملكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً والامرُ يومئذٍ لله »

— * * * * * —
 ❦ المقالة الأولى ❦

❦ في أفعال العباد ونسبها تارة اليهم وتارة الى الله تعالى ❦
 نشرنا هذه المقالة في الجزء السابع من المجلد الثالث من مجلة المنار (ص ١٥٧) تحت عنوان «سؤال وجواب عن آيتين من الكتاب»
 رفع سؤال الى مولانا حجة الاسلام وقدوة الأنام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية يطلب صاحبه فيه بيان الجمع بين قوله تعالى « وَإِنْ تُصِيبِهِمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَّا لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكْذِبُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا » وقوله تعالى عقيبها « مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا » فان بينهما في

باديء الرأي تنافياً ينزهه عنه كلام الله تعالى فأجاب حفظه الله تعالى بقوله

كان بعض القوم بطراً جاهلاً إذا أصابه خير ونعمة يقول إن الله تعالى قد أكرمه بما أعطاه من ذلك وأصدره من لده وساقه إليه من خزائن فضله عناية منه به لعل منزلته وإذا وصل إليه شر وهو المراد من السيئة يزعم أن منبع هذا الشر هو النبي صلى الله عليه وسلم وأن شؤم وجوده هو ينبوع هذه السيئات والشرور . فهؤلاء الجاهلون الذين كانوا يرون الخير والشر والحسنة والسيئة يتناوبانهم قبل ظهور النبي وبعده كانوا يفرقون بينهما في السبب الاول لكل منهما فينسبون الخير أو الحسنة الى الله تعالى على أنه مصدرها الاول ومعطيها الحقيقي يشيرون بذلك الى أنه لا يد للنبي فيه وينسبون الشر أو السيئة الى النبي على أنه مصدرها الأول ومنبعها الحقيقي كذلك وأن شؤمه هو الذي رماهم بها وهذا هو معنى « من عند الله » أو « من عندك » أي من لده ومن خزائن عطائه ومن لذك ومن رزايك التي ترمي بها الناس . فرد الله عليهم هذه المزامم بقوله « قل كل من عند الله » أي أن السبب الاول وواضع أسباب

الخير والشر المنعم بالنعم والرامي بالنقم انما هو الله وحده وليس لغيره
 ولا لشئوم مدخل في ذلك فهو بيان للفاعل الاول الذي يرد اليه
 الفعل فيما لا تناوله قدرة البشر ولا يقع عليه كسبهم وهو الذي
 كان يعنيه أولئك المشاققون عند ما يقولون الحسنه من الله والسيئه
 من محمد أي انه لا دخل لاختيارهم في الاولى ولا في الثانية وأن
 الاولى من عناية الله بهم والثانية من شؤم محمد عليهم فجاءت الآيه
 ترميهم بالجهل فيما زعموا ولو عقلوا لعلموا ان ليس لاحد فيما
 وراء الاسباب المعروفة نعل الخير والشر في ذلك سواء

هذا فيما يتعلق بمن بيده الامر الاعلى في الخير والشر
 والنعم والنقم أما ما يتعلق بسنة الله في طريق كسب الخير والتوقي
 من الشر والتمسك بأسباب ذلك فالأمر على خلاف ما يزعمون
 كذلك فان الله سبحانه وتعالى قد وهبنا من العقل والقوى
 ما يكفيننا في توفير أسباب سعادتنا والبعد عن مساقط الشقاء
 فاذا نحن استعملنا تلك المواهب فيما وهبت لاجله وصر فناحو اسنا
 وعقولنا في الوجوه التي ننال منها الخير وذلك انما يكون
 بتصحيح الفكر وإخضاع جميع قوانا لاحكامه وفهم شرائع الله
 حق الفهم والتزام ما حدده فيها فلا ريب في أننا ننال الخير والسعادة

وتبعد عن الشقاء والتعاسة وهذه النعم إنما يكون مصدرها تلك
المواهب الآلهية فهي من الله تعالى فما أصابك من حسنة فمن الله
لأن قواك التي كسبت بها الخير واستغفرت بها الحسنات بل
واستعمالك لتلك القوى إنما هو من الله لأنك لم تأت بشيء سوى
استعمال ما وهب الله فإتصال الحسنة بالله ظاهر ولا يفصلها عنه
فصل لا ظاهر ولا باطن . وأما إذا أسأنا التصرف في أعمالنا
وفرطنا في النظر في شؤوننا وأهملنا العقل وانصرفنا عن سرّ ما
أودع الله في شرائعه وغفلنا عن فهمه فاتبعنا الهوى في أفعالنا
وجلبنا بذلك الشر على أنفسنا كان ما أصابنا من ذلك صادرا عن سوء
اختيارنا وإن كان الله تعالى هو الذي يسوقه إلينا جزاء على ما فرطنا
ولا يجوز لنا أن ننسب ذلك إلى شؤم أحد أو تصرفه . ونسبة
الشر والسيئات إلينا في هذه الحالة ظاهرة الصحة فاما المواهب
الآلهية بطبيعتها فهي متصلة بالخير والحسنات وإنما يعطل أثرها
إهمالها وسوء استعمالها وعن كلا الأمرين يساق الشر إلى أهله
وهما من كسب المهملين وسيء الاستعمال فحق أن ينسب إليهم
ما أصيبوا به وهم الكاسبون لسببه فقد حالوا بكسبهم بين القوى
التي غرزها الله فيهم لتؤدي إلى الخير والسعادة وبين ما حقرها

أن تؤدي اليه من ذلك وبعدها بها عن حكمة الله فيها وصاروا
بها الى ضد ما خلقت لاجله فكل ما يحدث بسبب هذا
الكسب الجديد فأجدر به الآ ينسب الى كاسبه

وحاصل الكلام في المقامين أنه اذا نظر الى السبب الاول
الذي يعطي ويمنع ويمنع ويساب وينعم وينتقم فذلك هو الله
وحده ولا يجوز أن يقال إن سواه يقدر على ذلك ومن زعم غير
هذا فهو لا يكاد يفقه كلاماً لأن نسبة الخير الى الله ونسبة الشر
الى شخص من الاشخاص بهذا المعنى مما لا يكاد يعقل فان الذي
يأتي بالخير ويقدر على سوقه هو الذي يأتي بالشر ويقدر عليه
فالتفريق ضرب من الحبل في العقل

واذا نظرنا الى الأسباب المسنونة التي دعا الله الخلق
الى استعمالها ليكونوا سعداء ولا يكونوا أشقياء فمن أصابته
نعمة بحسن استعماله لما وهب الله فذلك من فضل الله لانه
أحسن استعماله الآلات التي من الله عليه بها فعليه أن يحمد
الله وليشكره على ما آناه ومن فرط أو أفرط في استعمال شيء
من ذلك فلا يلو من إلا نفسه فهو الذي أساء اليها بسوء استعماله
مالديه من المواهب وليس بسائق له أن ينسب شيئاً من ذلك

الى النبي ولا الى غيره فان النبي أو سواه لم يغلبه على اختياره ولم يقهره على آيانه ما كان سبباً في الانتقام منه

فلو عقل هؤلاء القوم لحمدوا الله وحمدوك (يا محمد) على ما ينالون من خير فان الله هو مانحهم ما وصلوا به الى الخير وأنت داعيهم لالتزام شرائع الله وفي التزامها سعادتهم ثم إذا أصابهم شر كان عليهم أن يرجعوا باللائمة على أنفسهم لتقصيرهم في أعمالهم أو خروجهم عن حدود الله فعند ذلك يعلمون أن الله قد انتقم منهم للتقصير أو العصيان فيؤدبون أنفسهم ليخرجوا من نعمته الى نعمته لأن الكل من عنده وإنما ينعم على من أحسن الاختيار ويسلب نعمته عن أساءه

وقد تضافرت الآثار على أن طاعة الله من أسباب النعم وأن عصيانه من مجالب النعم وطاعة الله إنما تكون باتباع سننه وصرف ما وهب من الوسائل فيما وهب لأجله

ولهذا النوع من التعبير نظائر في عرف التخاطب فانك لو كنت فقيراً وأعطاك والدك مثلاً رأس مال فاشتغلت بتتميته والاستفادة منه مع حسن في التصرف وقصد في الإنفاق وصرت بذلك غنياً فإنه يحق لك أن تقول إن غناك

انما كان من ذلك الذي أعطاك رأس المال وأعدك به للنفى .
 أما لو أسأت التصرف فيه وأخذت تنفق منه فيما لا يرضاه
 واطلع على ذلك منك فاسترد ما بقي منه وحرمتك نعمة التمتع
 به فلا ريب أن يقال ان سبب ذلك انما هو نفسك وسوء
 اختيارها مع أن المعطي والمسترد في الحالين واحد وهو والدك
 غير أن الامر ينسب الى مصدره الأول اذا انتهى على حسب
 ما يريد وينسب الى السبب القريب اذا جاء على غير ما يجب لأن
 تحويل الوسائل عن الطريق التي كان ينبغي أن تجري فيها الى
 مقاصدها انما ينسب الى من حولها وعدل بها عما كان يجب
 أن تسير اليه

وهناك للآية معنى أدق . يشعر به ذو وجدان أرق . مما
 يجده العاقلون من سائر الخلق . وهو أن ما وجدت من فرح
 ومسرة وما تمتعت به من لذة حسية أو عقلية فهو الخير الذي
 ساقه الله اليك واختاره لك وما خلقت الا لتكون سعيداً بما
 وهبك . أما ما تجده من حزن وكدر فهو من نفسك . ولو
 نفذت بصيرتك الى سر الحكمة فيما سيق اليك لفرحت
 بالمحزن فرحك باليسار وانما أنت بقصر نظرك تحب أن تختار

ما لم يختره لك العليم بك المدبر لشأنك ولو نظرت الى العالم
 نظرة من يعرفه حق المعرفة وأخذته كما هو وعلى ما هو عليه
 لكات المصائب لديك بمنزلة التوابل الحريفة^(١) يضيفها
 طاهيك^(٢) على ما يهيء لك من طعام أتزیده حسن طعم وتشجذ
 منك الاشتهاء لاستيفاء اللذة واستحسنت بذلك كل ما اختاره
 الله لك ولا يمنعك ذلك من التزام حدوده والتعرض لنعمه
 والتحول عن مصاب نعمة فان اللذة التي تجدها في النعمة انما
 هي لذة التأديب . ومتاع التعليم والتهديب . وهو متاع تجتبي
 فائدته . ولا تلتزم طريقته . فكما يسر طالب الآداب أن
 يتحمل المشقة في تحصيله وأن يلذ بما يلاقه من تعب فيه يسره
 كذلك أن يرتقي فوق ذلك المقام الى مستوى يجد نفسه فيه
 متمتعا بما حصل . بالغا ما أمل . وفي هذا كفاية لمن يريد
 أن يكفني اه

(١) هي ما يطيب به الطعام كالفاصل واحدها تابل

(٢) الطاهي الطباخ

✽ المقالة الثانية ✽

✽ مسألة الغرائق . وتفسير الآيات ✽

(نشرت في العدد الثالث من مجلة المنار للسنة الرابعة)

تمهيد . مصارعة الحق والباطل . رفع الاسلام مقام الانبياء وحكمه
 بعصمتهم . عيث عشاق الروايات وفسادهم في الدين . الروايات
 واختلافها في مسألة الغرائق . مخالفة المحققين لها . الرجوع الى اهل
 العلم الصحيح في ازالة الحيرة . الطعن في رواية تفسير التمني بالقراءة .
 الطعن في حديث الغرائق رواية . الطعن فيه دراية . عصمة الانبياء .
 الوجوه الدالة على بطلان حديث الغرائق . تفسير الآيات على الوجه
 الموافق لأسلوب القرآن المنطبق على العقائد الصحيحة . السباق
 وسابق الآيات . التفسير الاول وفيه المقابلة بين الآيات وآيات سورة
 آل عمران في المحكمات والمتشابهات . التفسير الثاني . امانى الانبياء .
 سنة الله فيهم وفي اقوامهم . تأويل ثالث . وسواس الشيطان . اللغات
 في الغرر والغرر . عدم ملائمة معانيه لوصف الآلهة . انشاء نقل
 ذلك عن العرب . الجزم بان الحديث من وضع الاعاجم .
 حديث الغرائق صار مشهوراً عند المتأخرين لوجوده
 في كثير من كتب التفسير التي تناوولها الايدي ولو صح لكان

أكبر شبهة على الدين ولكن المقلد البحث الذي لا نظر له لا يبالي بالشبه ويقبل كل نقل ، وإن كان الفرع فيه ينفي الاصل ، وطلاب الغنت يتشبثون بأهداب الشبه فيجملونها معاول تهديم الاركان الثابتة ، وتنفي القضايا المبرهنة . ولذلك كثير الطعن في هذه الايام ، بدين الاسلام ، من دعاة النصرانية ، وبعض المفتونين بالشبه المادية ، واقوى تكاأة لهؤلاء الطاعنين مقاله بعض المفسرين في مسألة زيد وزينب وفي مسألة الغرائق . ومسئلة أخرى . ولما كان كشف الشبهات وتحليص الحق من شوائب الباطل على وجه تثق به النفوس ، واطمئن اليه القلوب ، من وظائف أئمة الدين ، وأكابر العلماء الراسخين ، لجأ قوم الى حكيم الاسلام في هذا العصر ، وامام المسلمين في كل بادية ومصر ، مولانا الاستاذ الأكبر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ، في أن يجلي لهم الحق في المسئلة الاولى فاجاب ، بما هو الحكمة وفصل الخطاب ، ونشرناه في المنار ، ليشتهر في الاقطار ، ثم سأله آخرون في هذه الايام عن الثانيه . فاجاب بما أزال الالتباس ، ومحص ما في صدور الناس ، جعل المسئلة أولاً موضوع درس في الازهر حضره الجماهير والجم الفقير ثم

كتبها لتنشر في المنار، وتناقل في الامصار . وهالك ماجاء
من فضيلته ، بنصه وعبارته :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى
ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم
الله آياته والله عليم حكيم . ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين
في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق
بعيد . وليعلم الذين أتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا
به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهادي الذين آمنوا الى صراط
مستقيم . ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم
الساعة بغتة أويأتيهم عذاب يوم عقيم »

قد يجد الباطل انصاراً . فيتبوا من نفوسهم داراً . ويتخذ
له منها قراراً . وتذهب على ذلك الايام بعد الايام . وتمضي
عليه الاعوام إثر الاعوام . وهو يلعب بأهله . ويغلب أهواءهم
بجيلة . حتى يقصروا نظرهم عليه . ولا يجحدوا ملجا منه الا
اليه . فاذا أتوا من ناحيته رضوا . واذا عرض لهم الحق
أعرضوا . ولا يزالون كذلك الا أن تحل به عراهم . وتفسد

بمائه قواهم . والحق لا يزال يعرض نفسه . يستخدم مرة
 لينة وأخرى بأسه . وهو الشاب الذي لا يهرم . والعامل الصبور
 الذي لا يسأم . وإنما يُعْرَضُ بوجهه عن الاغبياء . ويؤلّي ظهره
 الاشقياء . ثم لا يبتك يرحمهم . ولا يبرح يتعهدهم . يسفر
 عليهم محياه . ويرسل اليهم اشعة من سناه . فاذا وافاهم وقد
 وهنت منتهم^(١) . ومرهت عيونهم .^(٢) وحلك ليلهم . واشتد
 خبلهم . صاح بهم منه صائح . ورحمهم من جنده راح .^(٣)
 ففلق بالباطل مكانه . وزلزلات من حوله أركانه . وفزع يطلب
 النصير . ونار يلتمس الحجير . فلا يجد الا أسباباً تقطعت به .
 وأعضاداً فتّ فيها بسببه .^(٤) وقد رنق قومه .^(٥) وعبس يومه
 فيحملك الى الحق يأخذه ببصره . ويستنزله بنظره . ولكن
 خاب الظن . وبطل الفن . ثم لا يلبث وهو الباطل ان يتحول

(١) المنن جمع منه بالضم وهي القوة (٢) مرهت العين خلت من
 الكحل أو فسدت لتركة (٣) رحمه طعنه بالرحم . والراح ذوالريح (٤)
 الفت الدق والكسر بالاصابع ويقولون « فت في عضده » اذا كسر قوته
 وفرق عنه أنصاره (٥) رنق القوم بالمكان (بتشديد النون) أقاموا وفي
 الامر خلطوا الرأي والطائر خفق بجناحه ورفرف ولم يعر .

عنده اليأس املاً . ويجد من اليأس بلاً . فيظن وهو هو .
 ان الحق ناصره . وان ستقوى به أو اصره . فيستنصر بجنده .
 ويطلب النجدة من عنده . واقرب ما يكون خصم الى الهلكة
 اذا اطمان الى عدوه . وأمل الخير في دنوه . هذا شأن الباطل
 وأهله . مع تقلبه في ملله ونحله .

يعلم كل ناظر في كتابنا الالهى (القرآن) ما رفع الاسلام
 من شأن الانبياء والمرسلين . والمنزلة التي أحلهم من حيث هم
 حملة الوحي وقدوة البشر في الفضائل وصالح الاعمال وتزييه
 ايامهم عمار ما هم به اعداؤهم وما نسبه اليهم المعتقدون بأديانهم . ولا
 يخفى على أحد من أهل النظر في هذا الدين القويم انه قد قرر
 عصمة الرسل كافة من الزلل في التبليغ والزيغ عن الوجهة التي
 وجه الله وجوههم نحوها من قول أو عمل وخص خاتمهم محمداً
 صلى الله عليه وسلم فوق ذلك بمزايا فصلت في ثنايا الكتاب العزيز
 عصمة الرسل في التبليغ عن الله اصل من أصول الاسلام
 شهد به الكتاب وأيدته السنة وأجمعت عليه الامة . وما خالف
 فيه بعض الفرق فإتما هو في غير الاخبار عن الله وابلغ وحيه
 الى خلقه . ذلك الاصل الذي اعتمدت عليه الاديان حق لا يرتاب

فيه ملي يفهم مامعنى الدين

مع ذلك لم يعدم الباطل فيه أنواعاً يعملون على هدمه
وتوهين ركنه أولئك عشاق الروايات وعبيدة النقل . نظروا
نظرة في قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي » —
— الآية وفيما روي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) من أن
تمنى بمعنى قرأ أو الامنية القراءة فعني عليهم وجه التأويل الحق
على فرض صحة الرواية عن ابن عباس فذهبوا يطلبون مابه يصح
التأويل في زعمهم فقيض لهم من يروي في ذلك احاديث
تختلف طرقها وتبين القاضها وتتفق في أن النبي صلى الله
عليه وسلم عند ما بلغ منه أذى المشركين ما بلغ وأعرضوا عنه
وجفاه قومه وعشيرته لعيبه اصنامهم وزرايته على آلهتهم أخذه
الضجر من إعراضهم ولحرصه على اسلامهم وتهالكه عليه تمنى
ان لا ينزل عليه ما ينفرهم لعله يتخذ ذلك طريقاً الى استماتهم
واستنزالهم عن غيهم وعنادهم فاستمر به ماتمناه حتى نزلت عليه
سورة « والنجم اذا هوى » وهو في نادي قومه وروي انه كان
في الصلاة وذلك التمنى آخذ بنفسه فطلق يقرأها فلما بلغ قوله :
ومناة الثالثة الاخرى « ألقى الشيطان في أميته » التي تمنها هابان

وسوس له بما شيعها به فسبق لسانه على سبيل السهو والغلط
فدح تلك الاصنام وذكر ان شفاعتهن ترتجي . فمنهم من قال
انه عند ما بلغ « ومناة الثالثة الاخرى » سها فقال : تلك الغرائيق
العلي . وان شفاعتهن لترتجي . ومنهم من روى (الغرائقة العلي)
ومنهم من روى (ان شفاعتهن ترتجي) بدون ذكر الغرائقة
والغرائيق . ومنهم من قال انه قال (وانها المع الغرائيق العلي)
ومنهم من روى (وانهن لهن الغرائيق العلي . وان شفاعتهن
لهي التي ترتجي) ففرح المشركون بذلك وعند ما سجد في آخر
السورة سجدوا معه جميعاً

قال ابن حجر العسقلاني : وتعدد الطرق وصحة ثلاثة
منها وان كانت مرسلة يدل على ان للواقعة أصلاً صحيحاً .
وهذه الاسانيد الصحيحة — في رأيه — وان كانت مراسيل
يحتج بها من يرى الاحتجاج بالحديث المرسل بل ومن لا يراه
كذلك لانها متعددة يعضد بعضها بعضاً اهـ ولولا خوف
التطويل لآتيت بجميع تلك الروايات ما صح عنده منها وما لم
يصح ولكن لا أرى حاجة اليه في مقالي هذا

روى ذلك ابن جرير الطبري وشايه عليه كثير من

المفسرين . وفي طباع الناس ألفُ الغريب . والتهافت على
العجيب . فولعوا بهذه التفاسير واتخذوها عقدة إيمانهم حتى
ظنوا — وبعض الظن أثم — ان لا معدل عنها . ولا سبيل في
فهم الآية الى سواها . ونسوا ما رآه جمهور المحققين في تأويلها
وذهب اليه الأئمة في بيانها . حتى نارت نائرة الشبه هذه الأيام
في نفوس كثير منهم وهم يزعمون انهم مسلمون واحسوا ان
ذلك الضرب من التفسير لا يتفق مع أصل العصمة في التبليغ
وان فيه من الحجة للعدو مالا سبيل الى دفعه فلجأوا الى أهل
العلم الصحيح يلتمسون منهم بيان المخرج مما سقطوا فيه .
وتوهموا انهم يقررون لهم ما ألفوا . ثم يتقدونهم من الحيرة
مع ثباتهم على ما حرفوا . ولاسكن ضل رأيتهم . وخاب ظنهم .
وسيقامون على المنهج . ويرون الحق ناصعاً اباح
في صحيح البخاري : وقال ابن عباس في « اذا تمنى التقي
الشیطان في امنيته » : اذا حدث التقي الشيطان في حديثه
فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته . ويقال امنيته قرأته
« الا أمانى » يقرؤون ولا يكتبون اه فتراه حتى تفسير
الامنية بالقراءة بلفظ (يقال) بعد ما فرها بالحديث رواية

عن ابن عباس وهذا يدل على المغايرة بين التفسيرين فما يدعيه الشراح ان الحديث في رأى ابن عباس بمعنى التلاوة يخالف ظاهر العبارة ثم حكايته تفسير الامنية بمعنى القراءة بلفظ (يقال) يفيد انه غير معتبر عنده (وسيأتي ان المراد بالحديث حديث النفس)

وقال صاحب الابريز ان تفسير تمنى بمعنى قرأ والامنية بمعنى القراءة مروى عن ابن عباس في نسخة على بن ابي طلحة عن ابن عباس ورواها على ابن صالح كاتب الليث عن معاوية ابن صالح عن علي بن ابي طلحة عن ابن عباس وقد علم ما للناس في ابن ابي صالح كاتب الليث وان المحققين على تضعيفه . اهـ — هذا ما في الرواية عن ابن عباس وهي اصل هذه الفئنة وقد رأيت ان المحققين يضعفون راويها

واما قصة الغرائب فمع ما فيها من الاختلاف الذي سبق ذكره جاء في تميمها ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يفطن لما ورد على لسانه وان جبريل جاءه بعد ذلك فعرض عليه السورة فلما بلغ الكلمات قال له ما جئتك بهاتين فخرن لذلك فأمر الله عليه « وما أرسلنا » الآيات تسليية له كما انزل لذلك قوله : « وان

كادوا ليفتمونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره
 وإذا لاتخذوك خلفاً . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم
 شيئاً قليلاً . إذا لأذقناك ضعف الحيوة وضمف المات ثم
 لاتجد لك علينا نصيراً » وفي بعض الروايات : ان حديث
 الغرائق فشا في الناس حتى بلغ أرض الحبشة فساء ذلك المسلمين
 والنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت « وما أرسلنا » الآية . قال
 القسطلاني في شرح البخاري : وقد طعن في هذه القصة
 وسندها غير واحد من الأئمة حتى قال ابن اسحق وقد سئل
 عنها : هي من وضع الزنادقة اه وكفى في انكار حديث ان
 يقول فيه ابن اسحق انه من وضع الزنادقة مع حال ابن اسحق
 المعروفة عند المحدثين

وقال القاضي عياض : ان هذا حديث لم يخرج له أحد من
 أهل الصحة ولا رواه أحد بسند متصل سليم وانما أولع به
 وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقون
 من الصحف كل صحيح وسقيم . ثم نقل عن أبي بكر ابن العلاء
 ما يدل على سقم الرواية واضطراب الرواة فيها وما يقضي عليها
 بالوهن والسقوط عن درجة الاعتبار . وقال الامام أبو بكر

ابن العربي - وكفى به حجة في الرواية والتفسير - : ان
جميع ماورد في هذه القصة لا أصل له

قال القاضي عياض والذي ورد في الصحيح أن النبي صلى
الله عليه وسلم قرأ « والنجم » وهو بمكة فسجد معه المسلمون
والمشركون والجن والانس اه وقد يكون ذلك لبلاغة السورة
وشدة قرعها وعظم وقعها . ثم قال القاضي : قد قامت الحجة
وأجمعت الامة على عصمته صلى الله عليه وسلم ونزاهته عن
هذه الرذيلة إمامن تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح
آلهة غير الله وهو كافر أو ان يتسود عليه الشيطان ويشبهه
عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ويعتقد النبي صلى الله
عليه وسلم أن من القرآن ما ليس منه حتى يفهمه جبريل عليه
السلام وذلك كله ممتنع في حقه صلى الله عليه وسلم أو يقول
ذلك النبي صلى الله عليه وسلم من قبل نفسه عمداً وذلك كفر
أو سهواً وهو معصوم من هذا كله وقد قررنا بالبراهين
والاجماع عصمته صلى الله عليه وسلم من جريان الكفر على
لسانه أو قلبه لا عمداً ولا سهواً . أو ان يشبهه عليه ما يليق بالملك
مما يلقي الشيطان أو يكون للشيطان عليه سبيل . أو ان يتقول

على الله لا عمداً ولا سهواً ما لم ينزل عليه وقد قال الله تعالى « ولو تقول علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين » وقال « إذا لأذقناك ضعف الحياة و ضعف المات ثم لا تجد لك علينا نصيراً » (ووجه ثان) وهو استحالة هذه القصة نظراً وعرفاً وذلك ان هذا الكلام لو كان كما روي لكان بعيد الائتم . متناقض الاقسام . ممزوج المدح بالذم . متخاذل التأليف والنظم . ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم ومن بحضرته من المسلمين . وصناديد المشركين . ممن يخفى عليه ذلك . وهذا لا يخفى على ادنى متأمل فكيف بمن رجح حلمه . واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه . (ووجه ثالث) انه علم من عادة المنافقين . ومعاندة المشركين . وضعفه القلوب والجهلة من المسلمين . نفورهم لأول وهلة . وتخليط العدو على النبي صلى الله عليه وسلم لأقل فتنه . وتغييرهم المسلمين والشامة بهم الفينة بعد الفينة ^(١) وارتداد من في قلبه مرض ممن أظهر الاسلام لأدنى شبهة . ولم يحك أحد في هذه القصة شيئاً سوى هذه الرواية الضعيفة الاصل . ولو كان

(١) الفينة كاليلة الساعة والحين

ذلك لوجدت قریش بها على المسلمين الصولة . ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة . كما فعلوا مكابرة في قصة الاسراء . قال : ولا فتنه أعظم من هذه البلية لو وجدت . ولا تشغيب للمعادي حينئذ أشد من هذه الحادثة لو أمكنت .^(١) وما ورد عن معاند فيها كلمة . ولا عن مسلم بسببها بنت شفة . فدل على بطلها . واجنثا أصلها . ولا شك في ادخال بعض شياطين الانس والجن هذا الحديث على بعض مغفلي المحدثين . ليلبس به على ضعفاء المسلمين . (ووجه رابع) ذكر الرواة لهذه القصة ان فيها نزلت « وان كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا اليك » الآياتان وهذان الآيتان تردان الخبر الذي رووه لأن الله تعالى ذكر انهم كادوا يفتنونه حتى يفترى ولولا أن ثبته لسكاد يركن اليهم شيئاً قليلاً . فمضمون هذا ومفهومه ان الله عصمه من ان يفترى وثنته حتى لم يركن اليهم قليلاً فكيف كثيراً . وهم يروون في أخبارهم الواهية انه زاد على الركون والانتراء بمدح آلهتهم . وانه صلى الله عليه وسلم قال : افترت على الله وقت ما لم يقل . وهي تضعف الحديث لو صح فكيف ولا صحة له ؟ وهذا مثل

قوله تعالى في الآية الاخرى « ولولا فضل الله عليك ورحمته
 لطمت طائفة منهم ان يضلوك وما يضلون الا انفسهم وما
 يضرونك من شيء » قال القشيري ولقد طالبه قريش وثقيف
 اذ مر بآلهتهم ان يقبل بوجهه اليها ووعدوه الايمان به ان
 فعل فما فعل ولا كان ليفعل . قال ابن الانباري ما قارب
 الرسول ولا ركن . انتهى المطلوب من كلام القاضى رحمه
 الله . وقد اورد بعد ذلك كثيراً من القول في توهين الرواية
 وتكذيبها

أما ما ذكره ابن حجر من ان القصة رويت مرسله من
 ثلاث طرق على شرط الصحيح وانه يحتاج بها الخ ما سبق فقد
 ذهب عليه كما قال في الابريز ان العصمة من العقائد التي يطلب
 فيها اليقين فالحديث الذي يفيد خرمها ونقضها لا يقبل على أي
 وجه جاء وقد عدَّ الاصوليون الخبر الذي يكون على تلك الصفة
 من الاخبار التي يجب القطع بكذبها . هذا لو فرض اتصال
 الحديث فما ظنك بالمراسيل وانما الخلاف في الاحتجاج بالمرسل^(١)

(١) الحديث المرسل هو الذي سقط من سنده من بعد التابعي
 والجمهور يتوقفون عن الاحتجاج به لجواز أن يكون الساقط غير صحابي

وعدم الاحتجاج به فيما هو من قبيل الاعمال وفروع الاحكام
لا في أصول العقائد ومعاقد الايمان بالرسول وما جاؤا به فهي
هفوة من ابن حجر يعرفها الله له

هذا ما قاله الأئمة جزاهم الله خيراً في بيان فساد هذه
القصة وانها لا أصل لها ولا عبرة برأي من خالفهم فلا يعتمد
بذكرها في بعض كتب التفسير وان بلغ أربابها من الشهرة
ما بلغوا وشهرة المبطل في بطله لا تنفع القوة في قوله ولا تحمل
على الأخذ برأيه

﴿ تفسير الآيات ﴾

والآن أرجع الى تفسير الآيات على الوجه الذي تحتمله
الفاظها وتدل عليه عباراتها والله أعلم

لا يخفى على كل من يفهم اللغة العربية وقرأ شيئاً من القرآن
ان قوله تعالى « وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي »
الآيات يحكي قدرًا قدر المرسلين كافة لا يمدونه ، ولا يقفون
دونه ، ويصف شئشنة عرفت فيهم وفي أممهم . فلو صح ما قال
اولئك المفسرون لكان المعنى ان جميع الانبياء والمرسلين قد
سُطَّ الشيطان عليهم ، فخلط في الوحي المنزل اليهم ، ولكنه

بعد هذا الخلط ينسخ الله كلام الشيطان ويحكم الله آياته الخ . وهذا من اقبح ما يتصور متصور في اختصاص الله تعالى لانبياؤه ، واختيارهم من خاصة اوليائه ، فلندع هذا الهديان ولنعد الى ما نحن بصدده

ذكر الله لنبية حالاً من احوال الانبياء والمرسلين قبله ليعين له سنته فيهم . وذلك بعد ان قال « وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وحمود وقوم ابراهيم وقوم لوط واصحاب مدين وكذب موسى فاملت للكافرين ثم اخذتهم فكيف كان تكبير . » - الى آخر الآيات . ثم قال : « قل يا ايها الناس انما انا لكم نذير مبين . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سمعوا في آياتنا معاجزين اولئك اصحاب الجحيم . وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي » الخ فالقصاص السابق كان في تكذيب الامم لانبيائهم ثم تبعه الامر الالهي بان يقول النبي صلى الله عليه وسلم لقومه اني لم ارسل اليكم الا لاذركم بعاقبة ما اتم عليه ولا ابشر المؤمنين بالنعيم واما الذين يسمعون في الآيات والادلة التي اقيمها على الهدى وطرق السعادة ليحولوا عنها الانظار ، ويحجبوها

عن الابصار ، ويفسدوا أثرها الذي اقيمت لاجله ويعاجزوا
 بذلك النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين اى يسبقونهم ليعجزوهم
 ويسكتوهم عن القول وذلك بلعهم بالالفاظ وتجويلها عن مقصد
 قائمها كما يقع عادة من أهل الجدل والمحاكمة - هؤلاء الضالون
 المضلون هم أصحاب الجحيم . واعقب ذلك بما يفيد ان ما ابتلي
 به النبي صلى الله عليه وسلم من المعاجزة فى الآيات قد ابتلي به
 الانبياء السابقون فلم يبعث نبي فى أمة الا كان له خصوم
 يؤذونه بالتأويل والتحريف ويضادون امانيه ويحولون بينه
 وبين ما يبتغي بما يلقون فى سبيله من العثرات . فعلى هذا
 المعنى الذى يتفق مع ما لقيه الانبياء جميعاً يجب ان تفسر الآية
 وذلك يكون على وجهين

{ الاول } ان يكون تمنى بمعنى قرأ والامنية بمعنى القراءة
 وهو معنى قد يصح وقد ورد استعمال اللفظ فيه . قال حسان
 ابن ثابت فى عثمان رضى الله عنهما :

تمنى كتاب الله اول ليله وآخره لاقى حمام المقادر
 وقال آخر

تمنى كتاب الله اول ليله تمنى داود الزبور على رسل

غير ان الالتقاء لا يكون على المعنى الذى ذكره بل على
المعنى المفهوم من قولك « ألقىتُ فى حديث فلان » اذا ادخلت
فيه ما ربما يحتمله لفظه ولا يكون قد اراده او نسبت اليه مالم
يقله تمللا بان ذلك الحديث يؤدي اليه . وذلك من عمل
المعاجزين الذين ينصبون انفسهم لمحاربة الحق يتبعون الشبهة
ويسعون وراء الريبة فالالتقاء بهذا المعنى دأبهم ونسبة الالتقاء
الى الشيطان لانه مثير الشبهات بوساوسه ، مفسد القلوب
بدسائسه ، وكل ما يصدر من أهل الضلال يصح ان ينسب
اليه ويكون المعنى : وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبي الا اذا
حدث قومه عن ربه او تلاوحياً انزل اليه فيه هدى لهم قام فى
وجهه مشاغبون يحولون ما يتلوه عليهم عن المراد منه ، ويتقولون
عليه مالم يقله ، وينشرون ذلك بين الناس ليبعدوهم عنه ، ويمدوا
بهم عن سبيله ، ثم يحق الله الحق ، ويبطل الباطل ، ولا زال
الانبياء يصبرون على ما كذبوا وأوذوا ويجاهدون فى الحق
ولا يمتدئون بتمعيز المعجزين ، ولا بهزء المستهزئين ، الى ان
يظهر الحق بالمجاهدة ، وينتصر على الباطل بالمجاهدة ، فينسخ الله
تلك الشبه ويجتثها من اصولها ، ويثبت آياته ويقرررها ، وقدم

وضع الله هذه السنة في الناس ليميز الخبيث من الطيب فيفتن
الذين في قلوبهم مرض وهم ضعفاء العقول بتلك الشبه والوساوس
فينطلقون وراءها ويفتن بها القاسية قلوبهم من أهل العناد
والمجاهدة فيتخذونها سنداً يعتمدون عليها في جدلهم ثم تحض
الحق عند الذين أوتوا العلم ويخلص لهم بعد ورود كل شبهة عليه
فيعلموا أنه الحق من ربك فيصدقوا به فتخبت وتطمئن له
قلوبهم. والذين أوتوا العلم هم الذين رزقوا قوة التمييز البرهان
القاطع الذي يستقر بالعقل في قرارة اليقين، وبين المغالطات
وضروب السفسطة التي تطيش بالفهم، وتطير به مع الوهم،
وتأخذ بالعقل تارة ذات الشمال واخرى ذات اليمين، وسواء
أرجعت الضمير في « أنه الحق » الى ما جاءت به الآيات المحكمة
من الهدى الالهي أو الى القرآن وهو أجلها فالغنى من الصحة
على ما يراه أهل التمكين.

هوؤلاء الذين أوتوا العلم هم الذين آمنوا وهم الذين هداهم
الله الى الصراط المستقيم، ولم يجعل للوهم عليهم سلطاناً فيحيد
بهم عن ذلك النهج القويم. وأما الذين كفروا وهم ضعفاء العقول
ومرضى القلوب أو أهل العناد وزعماء الباطل وقساة الطباع

الذين لا تلين افئدتهم، ولا تبش للحق قلوبهم، فأولئك لا يزالون في ريب من الحق أو الكتاب لا تستقر عقولهم عليه، ولا يرجعون في متصرفات شؤونهم اليه، حتى تأتي ساعة هلاكهم بغتة فيلاقون حسابهم عند ربهم. أو ان امتد بهم الزمن، ومادهم الاجل، فسيصيبهم «عذاب يوم عقيم» يوم حرب يسامون فيه سوء، عذاب القتل أو الاسر، ويقذفون الى مطارح الذل وقرارات الشر، فلا ينتج لهم من ذلك اليوم خير ولا بركة، بل يسلبون ما كان لديهم ويساقون الى مصارع الهلكة، وهذا هو العقم في أتم معانيه وأشأم درجاته

ما أقرب هذه الآيات في مغازيها الى قوله تعالى في سورة آل عمران « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات. فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الالباب » وقد قال بعد ذلك : « ان الذين كفروا لن نغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار » ثم قال : « قل للذين كفروا استغلبون وتحشرون

الى جهنم وبئس المهاد» الخ الآيات . وكأن احدى الطائفتين
من القرآن شرح للاخرى . فالذين في قلوبهم زيغ هم الذين في
قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم . والراسخون في العلم هم الذين
أوتوا العلم . وهؤلاء هم الذين يعلمون انه الحق من ربهم
فيقولون آمنا به كل من عند ربنا فتخبت له قلوبهم وان الله
لهاديهن الى صراط مستقيم . وأولئك هم الذين يفتنون بالتأويل .
ويشتغلون بقال وقيل . بما يلقي اليهم الشيطان . ويصرفهم
عن مرامي البيان . ويميل بهم عن محجة الفرقان . وما يتكون
عليه من الاموال والاولاد لن يغني عنهم من الله شيئا فستوافهم
آجالهم . وتستقبلهم أعمالهم . فان لم يوافهم الاجل على فراشهم .
فسيفلبون في هراشهم .^(١) وهذه سنة جميع الانبياء مع
اممهم . وسبيل الحق مع الباطل من يوم رفع الله الانسان الى
منزلة يميز فيها بين سعادته وشقائه . وبين ما يحفظه وما
يذهب ببقائه . وكما لامدخل لقصة الفرائق في آيات آل
عمران لامدخل لها في آيات سورة الحج : هذا هو الوجه
الاول في تفسير آيات « وما أرسلنا » الى آخرها على تقدير

(١) الهراش الموانبة والمخاصمة

ان تَمَنَّى بِمَعْنَى قَرَأَ وان الامنية بمعنى القراءة والله أعلم
 (الوجه الثاني في تفسير الآيات) ان التمني على معناه
 المعروف وكذلك الامنية وهي أفعوله بمعنى المنية وجمعها امانى
 كما هو مشهور . قال أبو العباس احمد بن يحيى : التمني حديث
 النفس بما يكون وبمالا يكون . قال : والتمني سؤال الرب وفي
 الحديث « اذ تمنى أحدكم فليتكثر فانما يسأل ربه » وفي رواية
 « فليكثر » قال ابن الاثير : التمني تشبهي حصول الامر المرغوب
 فيه وحديث النفس بما يكون ومالا يكون . وقال أبو بكر :
 تمنيت الشيء اذا قدرته وأحببت أن يصير اليّ . وكل ما قيل
 في معنى التمني على هذا الوجه فهو يرجع الى ما ذكرنا ويتبعه
 معنى الامنية

ما أرسل الله من رسول ولانبيّ ليدعو قومًا الى هديّ
 جديد أو شرع سابق شرعه لهم ويحملهم على التصديق بكتاب
 جاء به نفسه ان كان رسولا أو جاء به غيره ان كان نبياً بُعثَ
 ليحمل الناس على اتباع من سبقه الا وله امنية في قومه وهي
 أن يتبعوه ويخاوزوا الى ما يدعوهم اليه ، ويستشفوا من داءهم
 بدوائه . ويعصوا أهوائهم باجابة ندائه . وما من رسول أرسل

الا وقد كان أحرص على أيمان أمته . وتصديقهم برسالته . منه
على طعامه الذي يطعم . وشرابه الذي يشرب . وسكنه الذي
يسكن اليه . ويمدو عنه ويروح عليه . وقد كان نبينا صلى الله
عليه وسلم من ذلك في المقام الاعلى . والمكان الاسمى . قال
الله تعالى : « فلعلك باخع نفسك علي آئارهم ان لم يؤمنوا بهذا
الحدِيث أسفأ » وقال « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين »
وقال : « أفأنت تكبره الناس حتى يكونوا مؤمنين » وفي
الآيات ما يطول سرده مما يدل على أمانيه صلى الله عليه وسلم
المتعلقة بهداية قومه واخراجهم من ظلمات ما كانوا فيه الى نور
ما جاء به

وما من رسول ولا نبي الا اذا تني هذه الامنية السامية
التي الشيطان في سبيله العثرات . وأقام بينه وبين مقصده
العقبات . ووسوس في صدور الناس . وسلبهم الانتفاع بما
وهبوا من قوة العقل والاحساس . فثاروا في وجهه . وصدوه
عن قصده . وعاجزوه حتى لقد يعجزونه . وجادلوه بالسلاح
والقول حتى لقد يقهرونه . فاذا ظهروا عليه والدعوة في بدايتها
وسهل عليهم ايذاؤه وهو قليل الاتباع ضعيف الانصار ظنوا

الحق من جانبهم وكان فيما القوه من العوائق بينه وبين ما عمد
اليه فتنة لهم

غلبت سنة الله في أن يكون الرسل من أوسط قومه
أو من المستضعفين فيهم ليكون العامل في الاذعان بالحق محض
الدليل وقوة البرهان ويكون الاختيار المطلق هو الحامل لمن
يدعى اليه على قبوله ولكيلا يشارك الحق الباطل في وسائله .
أو يشاركه في نصب شركائه وحبائله . أنصار الباطل في كل
زمان هم أهل الانفة والقوة والجاه والاعتزاز بالاموال والاولاد
والعشيرة والاعوان والنرور بالزخارف . والزهو بكثرة المعارف .
ونلك الخصال انما تجتمع كلها أو بعضها في الرؤساء وذوي المسكنة
من الناس فتذهلهم عن أنفسهم . وتصرف نظرهم عن سبيل
رشدهم . فاذا دعا الى الحق داع عرفته القلوب النقية من
أضار هذه القوائن . وفزعت اليه النفوس الصافية والعقول
المستعدة لقبوله بخلوصها من هذه الشواغل . وقلما توجد الا
عند الضمفاء وأهل المسكنة . فاذا التف هؤلاء حول الداعي
وظافروه على دعوته قام أولئك المعرورون يقولون « ما نراك
الابشراً مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادي الرأي

وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين « فإذا استدريجهم الله على سنته وجعل الجدل بينهم وبين المؤمنين سجالاتاً افتن الذين في قلوبهم مرض من أشياعهم . وافتنوا هم بما أصابوا من الظفر في دفاعهم . ولكن الله غالب على أمره فيحق ما لقاها الشيطانات من هذه الشبهات . ويرفع هذه الموانع وتلك العقبات . ويهب السلطان لآياته فيحكمها . وثبت دعائمها . وينشئ من ضعف انصارها قوة ، ويخلف لهم من ذلتهم عزرة ، وتكون كلمة الله هي العليا . وكلمة الشيطان هي السفلى . » فأما الربُّ إذ فيذهب جُفَاءً وأما ما ينفع الناس فيمكنث في الارض «

وفي حكاية هذه السنة الالهية التي أقام عليها الانبياء والمرسلين . تسليمةً لنا صلَّى الله عليه وسلم عما كان يلاقي من قومه ووعد له بأن سيكمل له دينه . ويتم عليه وعلى المؤمنين نعمته . مع استنلافهم الى سيرة من سبقهم . « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين . أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه

متى نصر الله الا ان نصر الله قريب « هذا هو التأويل الثاني في معنى الآية ويدل عليه ما سبق من الآيات ويرشد اليه سياق القصص السابق في قوله « وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح » الخ . وأنت ترى ان قصة الغرائيق لا تتفق مع هذا المعنى الصحيح . وهناك تأويل ثالث ذكره صاحب الابريز واني أنقله بحروفه وما هو بالبعيد عن هذا بكثير . قال بعد ذكر أماني الانبياء في أممهم وطمعهم في ايمانهم وشأن نبينا صلى الله عليه وسلم في ذلك على نحو يقرب مما ذكرناه في الوجه الثاني :

« ثم الامة تختلف كما قال تعالى « ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر » فأما من كفر فقد ألقى اليه الشيطان الوسوس القادحة له في الرسالة الموجبة لكفره . وكذا المؤمن أيضاً لا يخلو أيضاً من وسوس لا لأنها لازمة للايمان بالغيب في الغالب وان كانت تختلف في الناس بالقلة والكثرة وبحسب المتعلقات . اذا نقرر هذا فعنى تمنى انه يتمنى لهم الايمان ويحب لهم الخير والرشد والصلاح والنجاح فهذه أمنية كل رسول ونبى والقاء الشيطان فيها يكون بما يليق به في قلوب أمة الدعوة من الوسوايس

الموجبة لكفر بعضهم ويرحم الله المؤمنين فينسخ ذلك من قلوبهم ويحكم فيها الآيات الدالة على الوحدانية والرسالة ويبقى ذلك عز وجل في قلوب المنافقين والكافرين ليفتنتوا به . فخرج من هذا ان الوساويس تلقى أولاً في قلوب القرينين معاً غير انها لا تدوم على المؤمنين وتدوم على الكافرين « اهـ وأنت اذا نظرت بين هذا التفسير وبين ما سبقه تتبين الاحق بالترجيح

لو صح ما قاله نقلة قصة الغرائق لارتفعت الثقة بالوحي وانتقض الاعتماد عليه كما قاله القاضي البيضاوي وغيره وان كان الكلام في الناسخ كالكلام في المنسوخ يجوز ان يلقي فيه الشيطان ما يشاء ولا نهدم أعظم ركن للشرائع الالهية وهو العصمة . وما يقال في المخرج عن ذلك ينفر منه الذوق ولا ينظر اليه العقل . على ان وصف العرب لآلهمم بأنها الغرائق العلى لم يرد لا في نظمهم ولا في خطبهم ولم ينقل عن أحد ان ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم الا ما جاء في معجم ياقوت غير مسند ولا معروف بطريق صحيح وهذا يدل على ان القصة من اختراع الزنادقة كما قال ابن اسحق وربما كانت

منشأ ما أورده ياقوت . ولا يخفى ان الغرنوق والغرنيق لم يعرف في اللغة الا اسماً لطائر مائي اسود أو أبيض أو هو اسم الكركي أو طائر يشبهه . والغرنيق (بالضم وكزنبور وقنديل وسموأل وفردوس وقرطاس وعلابط) معناه الشاب الابيض الجميل وتسمى الخصلة من الشعر المفتلة الغرنوق كما يسمى به ضرب من الشجر . ويطلق الغرنوق والغرائق على ما يكون في أصل العوسج اللين النبات . ويقال لمة غرائقة وغرائقة أي ناعمة تقيها الريح أو الغرنوق الناعم المستتر من النبات الخ ولا شيء في هذه المعاني يلائم الآلهة والاصنام حتى يطلق عليها في فصيح القول الذي يعرض على ملوك البلاغة وأمراء الكلام . فلا أظنك تعتقد الا أنها من مفتريات الاعاجم ومختلقات الملبسين ممن لا يميز بين حر الكلام ، وما استعبد منه لضعفاء الاحلام ، فراج ذلك على من يذهله الولوج بالرواية . عما تقتضيه الدراية . « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب »



— ❧ المقالة الثالثة ❧ —

(مسألة زيد وزينب — أو ابطال التبني وتفسير الآيات في ذلك)

« نشرت في العدد السابع والعشرين من مجلة المنار للسنة الثالثة »

علم القراء مما كتبناه في وضع الحديث أسبابه (أي في المنار) ان من الواضعين عن سوء القصد قوماً كانوا يتظاهرون بالصلاح لأجل أن تقبل روايتهم وان منهم من كان يضع لقصد حسن بحسب ما أداه اليه فكره القاصر وعقله الضعيف وان النتيجة من هذا ان قبول الحديث لا يصح أن يكون موقوفاً على قوة سنده وضعفه فقط بل تجب مراعاة أمور أخرى كأنطباقه على قواعد الشريعة العامة وعقائد الدين الصحيحة وغير ذلك مما لا محل لشرحه هنا. فاذا جاءت الرواية على خلاف ذلك بأن كانت لا تنطبق على ما جاء في القرآن أو ما يليق بجلال الله وتزيهه وحرمة دينه وعصمة أنبيائه وكرامتهم وجب رفضها وعدم قبولها سواء أطمعن بسندها أم لا .

ومما يدخل في هذا الباب ما رووه في مسألة زيد بن حارثة وطلاقه لزينب (رضي الله عنهما) وان سببه عشق النبي صلى

الله تعالى عليه وسلم لها فقد كانت هذه الرواية المشؤمة التي
 لطخت بها صفحات أكثر التفاسير ولم ينظر في اخلاصها بمقام
 الرسالة وما يليق بتلك الاخلاق التي شهد الله لها بالعظمة -
 شبهة على الاسلام ومجراة لغير أهله على الخوض في النبي
 الاكرم صلى الله عليه وسلم والاستدلال بذلك على عدم صحة
 نبوته حتى لا تكاد تجد كتاباً من الكتب التي ألفها دعاة
 النصرانية في الطعن بدين الاسلام وتغيير أهله منه الا وهذه
 المسئلة تكأتمهم العظيمي فيه بما يزيدونها من التشويه . وقد سأل
 أحد فضلاء تونس في هذه الايام مولانا حكيم الامة . وخاتمة
 الائمة . الاستاذ الاكبر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية
 عن تفسير الآيات الواردة في هذه المسئلة فأجاب حفظه الله
 تعالى بهذا الجواب . الذي هو لب الباب . واية الحكمة
 وفصل الخطاب . وهو بنصه :

« واذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك
 عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى
 الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجنا بها
 لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج ادعيائهم اذا

فَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا »

نزل قبل هذه الآية قوله تعالى « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً »

نزلت هذه الآية في زينب بنت جحش وهي بنت عمته صلى الله عليه وسلم أميمة بنت عبد المطلب وقد خطبها الرسول على مولاه زيد بن حارثة^(١) فأبت وأبى أخوها عبد الله بن جحش فنزلت آية « وما كان لمؤمن الخ » فلما نزلت الآية قالوا رضينا يا رسول الله فأنكحها إياه وساق عنه إليها مهرها ستين درهماً وخمسة دراهم وملحفة ودرعاً وازاراً وخمسين مئداً من طعام وثلاثين صاعاً من تمر كذا يروى

فنحن نرى من جهة ان زينب كانت بنت عمّة النبي صلى الله عليه وسلم ربيت تحت نظره وشملها من عنايته ما يشمل البنت من والدها لاول الامر حتى انه اختارها لمولاه زوجة مع ابيها و ابيه اخيها وعدا ابيها هذا عصياناً ولا زالت كذلك حتى نزل في شأنها قرآن فكأنه ارغمها على زواجه لما ألهمه الله

(١) يقال خطب فلانة على فلان اي جعلها خطيبة له

من المصلحة لها وللمسلمين في ذلك . ولو كان للجمال سلطان على قلبه صلى الله عليه وسلم لكان أقوى سلطانه عليه جمال البكر في روائه ونصرة جدته وقد كان يراها ولم يكن بينه وبينها حجاب ولا يخفى عليه شيء من محاسنها الظاهرة ولكن لم يرغبها لنفسه ورغبها لمولاه فكيف يمتد نظره اليها ويصيب قلبه سهم حبها بعد ان صارت زوجة لعبد من عبيده انعم عليه بالعتق والحرية . لم يعرف فيما يغلب على المؤلف البشر ان تعظم شهوة القريب وولمه بالقرب الى أن تبلغ حد العشق خصوصاً اذا كان عشيره منذ صغره بل المؤلف زهادة الاقرباء بعضهم في بعض متى تعود بعضهم النظر الى بعض من بداية السن الى أن يبلغ حدًا منه يجول فيه نظر الشهوة فكيف نظن أو نتوهم أن النبي الذي يقول الله له « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا » يخالف المؤلف العادة ثم يخالف أمر الله في ذلك ؟ أم كيف يخطر بالبال ان من عصم الله قلبه عن كل دنية يغلب عليه سلطان شهوة في بنت عمته بعد ان زوجها بنفسه لعبد من عبيده ؟

ومن جهة أخرى نرى ان النبي صلى الله عليه وسلم وهو

الرؤف الرحيم لم يبال بإبائه زينب ورغبتها عن زيد وقد كان
 لا يخفى عليه ان نفور قلب المرأة من زوجها مما تسوء معه
 العشرة وتفسد به شؤون المعيشة فما كان له وهو سيد المصالحين
 ان يرغم امرأة على الاقتران برجل وهي لا ترضاه مع ما في
 ذلك من الضرر الظاهر بكل من الزوجين . لا ريب اننا نجد من
 ذلك هادياً الى وجه الحق في فهم الآية التي نحن بصدد تفسيرها
 ذلك ان التصاق الادعاء بالبيوت واتصالهم بأنسابها
 كان أمراً تدين به العرب وتعمده اصلاً يرجع اليه في الشرف
 والحسب . وكانوا يعطون الدعي جميع حقوق الابن ويجرون
 عليه وله جميع الاحكام التي يعتبرونها للابن حتى في الميراث
 وحرمة النسب . وهي عقيدة جاهلية رديئة اراد الله محوها
 بالاسلام حتى لا يعرف من النسب الا الصريح . ولا يجري
 من احكامه الا ماله اساس صحيح . لهذا انزل الله « وما جعل
 ادعياءكم ابناءكم ذلكم قولكم بافواهكم والله يقول الحق وهو
 يهدي السبيل » ثم قال « ادعوهم لآبائهم هو اقسط عند الله »
 الخ . فهذا هو العدل الالهي ان لا ينال حق الابن الا من
 يكون ابناً . أمّا المتبني واللصيق فلا يكون له الا حق المولى والاخ

في الدين . فحرم الله على المسلمين ان ينسبوا الدعي لمن تنبأه .
 وحظر عليهم ان يقتطعوا له شيئاً من حقوق الابن لاقليلاً ولا
 كثيراً وشدد الامر حتى قال « وليس عليكم جناح فيما اخطأتم
 به ولكن ما تعدمت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً » فهو يعفو
 عن اللفظة تصدر من غير قصد بأن يقول الرجل لآخر هذا
 ابني او ينادى شخص آخر بمثل ذلك لاعن قصد التنبى ولكنه
 لا يعفو عن العمد من ذلك الذي يقصد منه الا لصاق بتلك
 اللحمة كما كان معروفاً من قبل

مضت سنة الله في خلقه ان ما رسخ في النفس بحكم
 العادة لايسهل عليها التّفصّي منه ولا يقدر على ذلك الا من رفعه
 الله فوق العادات . واعتقه من رق الشهوات . وجعل همته فوق
 المألوفات . فلا يطّيبه الا الحق^(١) ولا يحكم عليه الف^(٢) ولا يغلبه
 عرف . ذلك هو النبي صلى الله عليه وسلم ومن يختصه الله بالتأسي به
 لهذا كان الامر اذا نهى الله عن مكروه كانت الجاهلية

(١) اطباء بالتشديد استماله قال ابن دريد :

لا يطيبني طمع مدنس اذا استمال طمع أو اطبي

(٢) الالف بالفتح مصدر ألف واما الالف بالكسر فهو الآلف

أي العشير المؤانس

عليه او احل شيئاً كانت الجاهلية تحرمه باذن النبي صلى الله عليه وسلم الى امثال النهي بالكف عن المنهي عنه والايان بضده وسارع الى تنفيذ الامر باتيان الأمور به حتى يكون قدوة حسنة ومثالا صالحاً تحاكيه النفوس وتحتذيه الهمم وحتى يخف وزر العادة وتخلص العقول من ريب الشبهة .

نادى صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بجرمة الربا وأول ربا وضعه ربا عمه العباس حتى يرى الناس صنيعه بأقرب الناس اليه واكرمهم عليه فيسهل عليهم ترك ما لهم وتقطع وساوس الشيطان من صدورهم

على هذا السنن الالهي كان عمل النبي صلى الله عليه وسلم في أمر زينب . كبر على العرب ان يفصلوا عن أهلهم من الصقوة بأنسابهم من ادعيائهم كما دل عليه قوله تعالى « وتخشى الناس » الخ فعمد النبي صلى الله عليه وسلم على سنته الى خرق العادة بنفسه وما كان^(١) ينبغي له ولا من مقتضى الحكمة ان يكاف أحداً لادعياء

(١) قوله (ما كان الخ) اي ليس من شأنه ذلك ولا من مقتضى سنته وحكمته لان هذا تربية والتربية لا تدور الا على قطب الاسوة وفي مسألة الخلق في الحديدية عبرة ومثل فقد خالفوا الامر بالقول حتى خلقوا مخلوقا

الابعاد عنه ان يتزوج ثم يأمره بالطلاق ثم يأمر من كان قد تبناها ان
 يتزوج مطاقتها في ذلك من المشقة مع تحكم العادة وتمكن الاشتمتزاز
 من النفوس ما لا يخفى على أحد . فآلهمه الله ان يتولى الامر بنفسه
 في أحد عتقائه لتسقط العادة بالفعل كما ألقى حكمها بالقول الفصل
 لهذا ارغم النبي صلى الله عليه وسلم زينب ان تزوج يزيد
 وهو مولاه وصفيه والنبي يجد في نفسه ان هذا الزواج مقدمة
 لتقرير شرع وتنفيذ حكم آلهي . وبعد ان صارت زينب الى
 زيد لم يَلِنَ إياؤها الاول ولم يسلس قيادها بل شمتت بانفها
 وذهبت تؤذي زوجها وتفخر عليه بنسبها وبانها اكرم منه
 عراقا واصرح منه حرية لانه لم يجر عليها رق كما جرى عليه
 فاشتكى منها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم المرة بعد المرة
 وهو عليه السلام مع علو مقامه يغلبه الحياء فيتئد ويتمكث في
 تنفيذ حكم الله ولا يعجل فكان يقول لزيد « أمسك عليك
 زوجك واتق الله » الى ان غلب أمر الله على امر الأنفة
 وسمح لزيد بطلاقها بعد ان مضى العيش معها ثم تزوجها بعد
 ذلك رسول الله ليمزق حجاب تلك العادة ويكسر ذلك الباب
 الذي كان مغلقا دون مخالفتها كما قال « لكيلا يكون على

المؤمنين حرج في أزواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطراً وكان أمرُ
الله مفعولاً» واكد ذلك بالتصریح في نفي الشبهة بقوله: «ما كان
محمد أباً أحد من رجالكم ولو كن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله
بكل شيء عليماً» هذه هي الرواية الصحيحة والقولة الراجحة
ذكر الله نبيه بما وقع منه ليزيده تشبهاً على الحق وليدفع
عنه ما حاك في صدور ضماف العقول ومرضى القلوب فقال
«واذ تقول للذي أنعم الله عليه» بالاسلام «وانعمت عليه»
بالعتق والحرية والاصطفاء بالولاية والمحبة وتزويجه بنت عمته
وتعظه عند ما كان يشكو اليك من ايذاء زوجه «امسك عليك
زوجك واتق الله» واخشه في أمرها فان الطلاق يشينها وقد
يؤذي قلبها وارع حق الله في نفسك ايضاً فربما لا تجد بعدها
خيراً منها — تقول ذلك وانت تعلم ان الطلاق لا يبد منه بما
الهمك الله ان تمثل امره بنفسك لتكون اسوة لمن معك ولمن
يأتي بعدك وانما غلبك في ذلك الحياء وخشية ان يقولوا تزوج
محمد مطاقةً متبناه فان في هذا «تحفي في نفسك ما الله مبديه»
من الحكم الذي الهمك «وتخشى الناس والله» الذي أمرك
بذلك كله «احق ان تخشاه» فكان عليك ان تمضي في الامر من

اول وهلة تعجيلاً بتنفيذ كلمته وتقرير شرعه . ثم زاده بياناً بقوله
 « فلما قضى زيد منها وطراً » اي حاجة بالزواج « زوجها كما لكيلا
 يكون على المؤمنين حرج في ازواج ادعيائهم اذ اقضوا امنهن وطراً »
 لترفع لو حشة من نفوس المؤمنين ولا يجدوا في انفسهم حرجاً من ان
 يتزوجوا نساء كن من قبل زوجات لادعيائهم « وكان امر الله مفعولاً »
 وأما مارووه من ان النبي مرّ بيت زيد وهو غائب
 فرأى زينب فوقع منها في قلبه شيء فقال : سبحان مقلب
 القلوب . فسمعت التسيحة فنقلتها الى زيد فوقع في قلبه ان
 يطلقها الخ ما حكوه فقد قال الامام أبو بكر بن العربي انه
 لا يصح وان الناقلين له المحتجين به على مزاعمهم في فهم الآية
 لم يقدروا مقام النبوة حق قدره ولم تصب عقولهم من معنى
 العصمة كنهها وأطال في ذلك وأذكر من كلامه ما يؤيد
 ما ذكرنا في شأن هذه الروايات قال بعد الكلام في عصمة
 النبي صلى الله عليه وسلم وطهارته من العيب في زمن الجاهلية
 وبعد ان جاء الاسلام « وقد مهدنا لك روايات كلها ساقطة
 الاسانيد وانما الصحيح منها ماروي عن عائشة انها قالت لو كان
 النبي صلى الله عليه وسلم كاتباً شيئاً من الوحي لكتبتم هذه الآية

«وإذ تقول للذي أنعم الله عليه» يعني بالاسلام «وأنعمت عليه»
 فأعنته «أمسك عليك زوجك» الى قوله «وكان أمر الله مفعولا»
 وإن رسول الله لما تزوجها قالوا تزوج حليمة ابنة فأنزل الله
 «ما كان محمدُ أباً أحدي من رجالكم» الآية وكان رسول الله
 تنبأه وهو صغير فلبث حتى صار رجلاً يقال له زيد بن محمد
 فأنزل الله «أدعوهم لا بأبهم» هو أقسط عند الله يعني إنه أعدل
 عند الله قال القاضي وما وراء هذه الآية غير معتبر فأما قولهم
 ان النبي صلى الله عليه وسلم رآها فوقعت في قلبه فباطل فانه
 كان معها في كل وقت وموضع ولم يكن حينئذ حجاب
 فكيف تنشأ معه وينشأ معها ويلحظها في كل ساعة ولا تقع في
 قلبه الا اذا كان لها زوج وقد وهبته نفسها وكرهت غيره
 فلم يخطر ذلك بباله فكيف يتجدد هوى لم يكن حاشا لذلك
 القلب المطهر من هذه الملاقة الفاسدة وقد قال سبحانه وتعالى
 «ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة
 الدنيا لنفتنهم فيه» والنساء أفتن الزهرات وأنشر الرياحين ولم
 يخالف هذا في المطلقات فكيف في المنكوحات المحبوسات
 ثم ساق الكلام في تفسير الآية على حسب ماصح في الواقعة

ولولا خوف التطويل لنقلت كلامه بحروفه
 سبحانه الله كيف ساغ لقوم مسلمين أن يعتقدوا بمثل
 هذه الروايات وقد علموا أن الله لم يدع لنبيه أن يعرض عن ابن
 أم مكتوم ويتصدى لصناديد قریش طمعاً في اسلامهم حتى
 عاتبه على ذلك في قوله « عبس وتولى » الخ الآيات مع أنه لم
 ينصرف عن الاعمى الا لاشتغاله بما كان يعدّه في نفسه خيراً
 للدين ولم يكن رغبة في جاه ولا شهراً الى مال ولا طموحاً
 الى لذة . فلو صحّت الرواية التي زعموها في شأن زينب لكان
 العتاب على تلك التسيّجة بمسمع من زينب ثم على الزواج بعد
 الطلاق كما أشار اليه في قصة داود عليه السلام . وما كان
 محمد في علو مقامه ورفعة منزلته من النبوة لتطمح نفسه
 الى التلذذ بنت عمته وزوجة . وولاه ولا أن يسمه ما يدل على
 شغفه بها ولا ان تضعف عزيمته عن قمع شهوته وكبح جماحها
 وما كان رب محمد يعلل شهوته ويرفقه من هواه فيما يخالف
 أمره وهو الذي نهاه أن يمدّ عينيه الى ما متع الله به الناس من
 زهرة الحياة الدنيا ومن زهرتها النساء . تسامى قدر محمد عن
 ذلك وتمالى شأن ربه عن هذا علواً كبيراً

أما والله لو لا ما أدخل الضمفاء أو المدلسون من مثل هذه الرواية ما خطر ببال مطلع على الآية الكريمة شيء مما يرمون اليه فان نص الآية ظاهر جلي لا يحتمل معناه التأويل ولا يذهب الى النفس منه الا أن العتاب كان على التمهيل في الامر والتريث به وان الذي كان يخفيه في نفسه هو ذلك الامر الالهي الصادر اليه بأن يهدم تلك المادة المتأصلة في نفوس العرب وان يتناول المعول لهدمها بنفسه كما قدر له ان يهدم أصنامهم بيده لأول مرة عند فتح مكة وكما هو شأنه في جميع ما نهى عنه من عاداتهم . وهذا الذي كان يخفيه في نفسه كان الله مبديه بأمره الذي أوحاه اليه في كتابه وبتزويجه زوجة من كانوا يدعونه ابناً له كما تقدم بيانه . ولم يكن يمنعه عن ابداء ما أبدى الله الاحياء الكريمة ، وتوَدُّةُ الحليم ، مع العلم بأنه سيفعل لاحالة لكن مع معاونة الزمان

أذكر لطيفة لبعض الاذكياء جرت بمحضر مني . وذلك اننا كنا نزرور أحد الاساتذة الاميركانيين في مدينة بيروت فجاء في الحديث ذكر قوله تعالى « الذي أحسن كل شيء خلقه » فقال الاستاذ الاميريكي : حتى زينب زوجة زيد

ابن حارثة . يشير بقوله هذا الى تلك الحادثة ويعرض بعشقه صلى الله عليه وسلم لزئيب (على مازعموا) فقال له صاحبي : سبحان الله انكم تستغلون بعلوم السموات والارض ولا تستعملون عقولكم في اقرب الاشياء اليكم مع انكم في المشهور عنكم من اشد الناس ولعابالبحث في الاديان . ان الله امر نبيه ان يتزوج زوجة من دعاه ابناً له ليبين للناس بالفعل انه ليس كل من لقب بالابن يكون على الحقيقة ابناً فان كان المسيح قد دعي في لسان الانجيل بالابن فليس هذا على الحقيقة وانما الابن الحقيقي من وُلد من ابيه ولادة صحيحة « ان في ذلك لذكرى للعالمين » والله اعلم .

﴿ المقالة الرابعة في مسألة زيد وزئيب ﴾

(ايضاح و خلاصة — رد شبهة مسيحي فاضل)

لقد كان لما كتبه مولانا مفتي الديار المصرية في هذه المسألة ونشرناه في الجزء ٢٧ اجمل وقع . وأجل نفع . ففتشتمت به سحب الشبهات ، وانحأت عقد المشكلات . وسكنت حركة الشكوك التي كان يثور مجاجها . وتلاطم امواجها . وينهمر

شجاعها . وتدفق أبحاثها . وشفيت امراض أعيان الأطباء
 علاجها . وقطعت من شخوص المطاعن حلاقيمتها واوداجها
 وهكذا يقذف بالحق على الباطل . فيدمغه فاذا هو زاهق وزائل .
 الا ان كلام الاستاذ في علو أسلوبه . وبديع تأليفه
 وتركيبه . ورسوخ عرقه في الفصاحة . وبعمد غوره في البلاغة
 لم تجلّ جميع مقاصده لجميع الاذهان . ولم تنجل عرائس حسنه
 لسكل من له عينان . ومن الناس من اعشاه نوره . وراعت
 فؤاده حوره . فاشتبه عليه سلطان البرهان . بسحر البيان .
 فتوهم انه مسحور الوجدان . لاقنقنق العقل والجنان . وتخيّل
 انه مختلب بعبارة القلم واللسان . لاجتذب ببراعة الحجّة الى
 قرارة الاقرار والاذعان . اعني بهذا وما قبله من استزادنا في
 المسئلة بياناً . ليزداد الذين آمنوا إيماناً . ومن قال من فضلاء
 المسيحيين . ان الشبهة لم تكشف عن غير المسلمين . وانما
 غشيتها من فصاحة الاستاذ وبلاغته . وبراعته في عبارته . نور
 علاظمتها . وشغل النظر عن تشويه صورتها . وان من يضع
 على عينيه منظراً ملوّناً الزجاج . ينكسر به شعاع البلاغة الوهاج
 يمكنه ان يبصر الطريقة . ويدرك الحقيقة . قال هذا وانشأ

ينتقد كلمات الاستاذ رأى انها إقناعية . وليست حقيقة واقعية .
 منها قول الاستاذ « ولو كان للجمال سلطان على قلبه صلى الله
 عليه وسلم لكان أقوى سلطاناً عليه جمال البكر في زوائمه
 ونضرة جدته » الخ . وذهب هذا المعترض في نقض هذه
 المسئلة الى ان من البنات من تكون دميعة في طور البكارة
 حتى اذا ما تزوجت اكتست حلال الحسن والبهاء . والجمال
 والرواء . فيحتمل أن السيدة زينب كانت من هذا القبيل . وان
 كان في الوجود أقل القليل

ومنها قول الاستاذ « لم يعرف في مالوف البشران . تعظم
 شهوة القريب وولعه بالقريب خصوصاً اذا كان عشيره منذ
 صغره » الخ قال المعترض انه يحفظ وقائع متعددة تعلق فيها
 الاقرباء بعضهم ببعض حتى كان من ذلك ما لاخير فيه . وكذلك
 شأن من اشرب قلبه انكار شيء او إثباته يتعلق بالشذوذ
 ويتشبث بالاستثناء . ويترك القواعد العامة لا يحفل بها . وعهدي
 باذكياء المسيحيين انهم يرون أقوى اعتراض لهم على المسلمين
 في احتجاب النساء ان الحجاب والمنع من اسباب ازدياد الرغبة
 وقوة الداعية الى التطلع والرؤية . وان في الاختلاط أنساً ينتهي

بالمثل والزهادة كما هو المطرد في العادة. لاسيما بالنسبة للاقربين
 ورأيت من المسلمين من يستدل على صحة هذا القول
 بكون النفوس الى النساء المسلمات المتحجيات . أميل منها الى
 النساء الاوروبيات . واكثر تشوقاً . وأشد تطلماً . مع ان
 الاوربيات في الجملة اجمل . وزيتهن اكل . وما ذلك الاهن
 معروضات على الانظار . مألوفات للابصار . وكل معروض
 مهان . والمألوف لا يعظم به الاثنان
 منعت شيئاً فاكثرت الولوع به

احب شيء الى الانسان مامنعا

ولنلو عنان النظر عن هذا وذاك ونظر الى تلك الواقعة
 من غير ملاحظة ان من مقتضى الطباع السليمة . ومن شأن
 النفوس الكبيرة . — التي لا ينكر مناظرنا المسيحي الفاضل
 ان نفس محمد (صلى الله عليه وسلم) منها وان انكر نبوته —
 ان لا يقع منها الشذوذ بشدة المشق للقريب المألوف بحيث
 ينتهي الى ان صاحب النفس الكبيرة المتصدي لتأسيس دين
 وشريعة يزاحم عبداً من عبده على امرأة زوجته بها المشقة لها
 بعد زهده فيها وان يدخل ذلك في الشريعة التي يؤسسها . ثم

يظهر للملأ أن الله تعالى أنه على ذلك بمثل قوله « وتخشى
الناس والله أحق أن تخشاه » . ولو كانت الواقعة كما يتوهم
القوم وكان محمد هو واضع القرآن ومؤلفه لما جعل نفسه
ملوماً وأظهر أنه إنما أبطل النبي في دينه لحظ نفسه وارضاء
شهوته وجعل هذه الفضيحة مسجلة عليه في الكتاب الذي
أمر بكتابته دون سائر كلامه وبشر بأنه ينتشر في مشارق
الارض ومقاربهها وأنه يبقى مقروءاً متبعاً مادام الناس في
هذا العالم

قال مناظرنا ان الاستاذ كتب للمسلمين وكلامه مبني
على التسليم بنبوة محمد وهو لا ينهض حجة على النصارى الذين
ينظرون في المسئلة نظراً تاريخياً وقد ألمنا الى هذا من قبل
ولذلك بنينا الكلام على ان محمداً رجل مصلح باسم النبوة ننزلا
جدلياً وان كان الذين يعتقد فيهم صاحبنا وقومه النبوة ليس
لهم من الأثر الاصلاحى الدينى عشر معشاره . أما كونه
مصلحاً فلا ينكره منهم عاقل وقد قال لي الدكتور فانديك
الشهير ان مبدأ الاصلاح الذى وضعه محمد هو أعظم المبادئ
وأقواها وهو الوحدة في الاعتقاد والاجتماع . . ورأيت بعض

من كتب في تاريخ العرب من الافرنج جعل تاريخهم قسمين
 قسماً سماه (ما قبل الاصلاح المحمدي) وقسماً سماه (ما بعد
 الاصلاح المحمدي) وكل هذا من البديهيّات فلنرجع الى
 أصل المسئلة

المخالف موافق لنا في شيء واحد وهو ان الآيات الواردة
 في المسئلة متضمنة لابطال التنبّي الذي كانت العرب تدين به
 ولكنه يدعي ان إبطال هذه البدعة لم يكن مقصوداً أولاً
 وبالذات وانما كان حيلة للتوسل الى تزوج محمد بزینب بعد ان
 تزوجها عتيقه ومتبنّاه زيد بن حارثة ورآها عنده قد زادت
 حسناً عما كان يعهد . ولو كان الغرض ابطال التنبّي وما يترتب
 عليه من الاحكام الجائرة والمفاسد الضائرة لعهد بتنفيذ ذلك الى
 غيره من اتباعه . ونجيب عن هذا من وجوه تضمنها كلام
 الاستاذ اواستلزمها

(الأول) من المشهود المعهود في البشر ان العادات
 والتقاليد متى صارت عامة يصعب على النفوس ان تتركها بمجرد
 أمر مصلح لاسيما في اول زمن الدعوة الى الاصلاح ولا يقدم
 على الابتداء بنحرق العادة وتمزيق حجب التقليد الا أصحاب

العزائم الكبيرة وهم المصلحون الذين يستهدفون لسهام الانتقاد العام وتحملون في سبيل الاصلاح كل إهانة وسخرية من الدهماء وجماهير الناس ليكونوا قدوة لغيرهم في ذلك . وقد اتفق علماء التربية على ان ملاكها وقوامها الاقتداء والتأسي لا القول والارشاد اللفظي . وكذلك كان شأن النبي (صلى الله عليه وسلم) في كل ما أبطله من اعتقاداتهم وتقاليدهم وعاداتهم يبدأ بنفسه ثم بأقرب الناس اليه . وقد مثلنا للأول في هامش مقالة الاستاذ بمسئلة الحلق في الحديدية وكيف خالف النبي جميع الصحابة حتى حلق بالفعل فاقتدوا به ومثل الاستاذ بابطال الربا . وليغرض المخالف انه دخل في دين جديد مقتنعا به ومعتقداً صحته وان القائم بالدعوة الى هذا الدين امره بان يتزوج بأخته لأن دينه يحكم بذلك أليس يصعب عليه الامتثال أشد الصعوبة بحيث يرجح مخالفته . هذا واننا نرى اهل كل دين قد خالفوا بمض احكام دينهم اتباعا للعادات التي صارت عامة ويصعب عليهم الرجوع الى الأصل . واذا كان الامر بهذه الدرجة من الصعوبة فالعاقل لا يقسم على تكليف الناس به بمجرد القول خوفا من اضطرارهم الى مخالفته التي تفسد العمل وتؤدي الى

خلاف المقصود

(الثاني) لو انه (صلى الله عليه وسلم) عمد الى تنفيذ هذا الحكم بغيره لاحتاج الى الأمر بمدة أمور بعضها أشد من بعض ومنها ما هو خلاف تعاليمه الدينية . (أحدها) ان يأمر بعض من تبني بان يتزوج وربما كان يقل في المسلمين عدد الادعياء الذين عندهم الاستطاعة الشرعية للتزوج مع ان الذين تبنوهم مسلمون وفي سن قابل للزواج وربما يقع الامر لغير المستطيع من حيث لا يعلم الامر لانه لم يكن عارفا بجميع شؤون الناس الخصوصية والمزنية . على أن من شأن من يجب ان يطاع في كل أمر أن لا يتعرض للامور الخصوصية المباحة الا بالنسبة لا قرب الناس اليه بل هذا شأن جميع العقلاء وهذا الوجه أهون مما بعده (ثانيها) أن يأمره بعد الزواج بالطلاق والامر بالطلاق منكر وانما أباحه الشرع للضرورة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في التنفير منه « ابقض الحلال الى الله الطلاق » رواه أبو داود من حديث ابن عمر رضى الله عنهما . ثم ان هذا المتزوج لا يبعد أن يحصل بينه وبين من يتزوج بها من الالفة والمحبة ما يصعب معه الفراق . ويتعاضى به الخضوع لامر الطلاق

(ثالثها) ان يأمر من كان تبني هذا المطلق بأن يتزوج بالمطالبة ويتوقع في هذا الامر امور منها أن هذا المتبني قد تنفر نفسه منها لذاتها بان يستبشع صورتها أو يكون عارفاً من طباعها مالا يمكنه معه معاشرتها وقد يكون متزوجاً بغيرها ولا يستطيع الجمع بين امرأتين ثم ان هنا ملاحظة أهم من كل ما ذكر وهو ان تعدد الزوجات مشروط في القرآن بعدم الخوف من ترك العدل بين الزوجات ولا شك ان الذي يريد التزوج بامرأة متبتناه لمجرد الامتثال لأمر النبي صلى الله عليه وسلم يخاف من عدم العدل بين الزوجة الجديدة التي يأخذها كارها وبين الاولى التي كان آلفاً لها ومستأنساً بمعاشرتها وعند ذلك لا يصح النكاح . (رابعها) انه قد يرضى هو ولا يرضى هي لانها فتية وهو شيخ مثلاً ولا يخفى شئ من هذه الامور على ذلك الرجل العظيم الذي جاء بتعاليم واعمال قلبت هيئة الارض وغيرت نظام الامم سواء كان نبياً (كما هو الواقع) أو لم يكن (كما هو رأي المخالف)

(الوجه الثالث) ان هذا المصلح الحكيم اختار صورة لابطال تلك العادة الدينية الجاهلية خالية من كل المحظورات

المشروحة في الوجه الثاني وذلك بان يزوج متبتناه بامرأة يقضي العقل بانه يختار هو واياها الفراق عن رضى لعدم الكفاءة ثم يتزوجها هو ولاشك انها ترضاه لما هو معلوم من القرابة والجمال والكمال وكذلك كان

(الوجه الرابع) ان الذي يدل مع ما تقدم على ان الامر مقصود للنبي (صلى الله عليه وسلم) منسند خطب زينب لزيد (رضى الله عنهما) إلحاحه فيه وعنايته الكبرى به. وقد خطب هو نساء ولم يتزوج بهن وتزوج بعدة نساء ولم يذكر في القرآن شئ من ذلك لان القرآن كما قلنا لم يذكر فيه الا أهم المهمات في الدين حتى انه لم يذكر فيه هيئة الصلاة ولا عدد ركعاتها ولا تحديد أوقاتها فمقدم مبالاته بإياها وتمنيه وإيابه أخيه لا يمكن أن يكون لمصلحتها ولا لمصلحة زيد لان العقل قاض بانه لا ينعم له مع ابال مع هذا النفور والاباء وما هو معلوم من ثقة اشرف العرب كبنى هاشم وبنى المطلب وهي من صميمهم وكانت لا ترى لها كفوء الا النبي (صلى الله عليه وسلم) فلم يبق لهذا الإلحاح والتحميم عليها بالرضى به الا قصد إبطال تلك البدعة الذميمة بأقرب الوجود وأبعدها عن الضرر والضرار

(الوجه الخامس) ان السورة التي ذكرت فيها القصة
 جاء في فاتحتها « وما جعل ادعياءكم ابناءكم ذلكم قولكم بافواهكم
 والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . اذعوبهم لا بائهم هو
 اقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين ومواليكم »
 الآية . وجاء فيها بعد هذا وقبل ذكر القصة « لقد كان لكم في
 رسول الله اسوة حسنة » فقد ابطال التنبى بالقول ولم يعمل
 بمقتضاه احد قبله (صلى الله عليه وسلم) فهذا التمديد . مع ذلك
 التشديد . برهان كاف على ذلك القصد الحميد . ومناف لزعم
 الزاعمين ان قصد النبي صلى الله عليه وسلم التزوج بزَيْنَب كان
 بعد ما رآها في بيت زيد رضى الله عنه . وفي هذا كفاية لغير
 المعاند والله اعلم .

نشرنا هذه المقالة في الجزء التاسع والعشرين من مجلد مجلة
 « المنار » الرابع بعد مناظرة في مقالة الاستاذ بيني وبين احد
 فضلاء المسيحيين كما علم من صدر المقالة

فهرست

— ما اشتملت عليه هذه المجموعة —

صحيفة

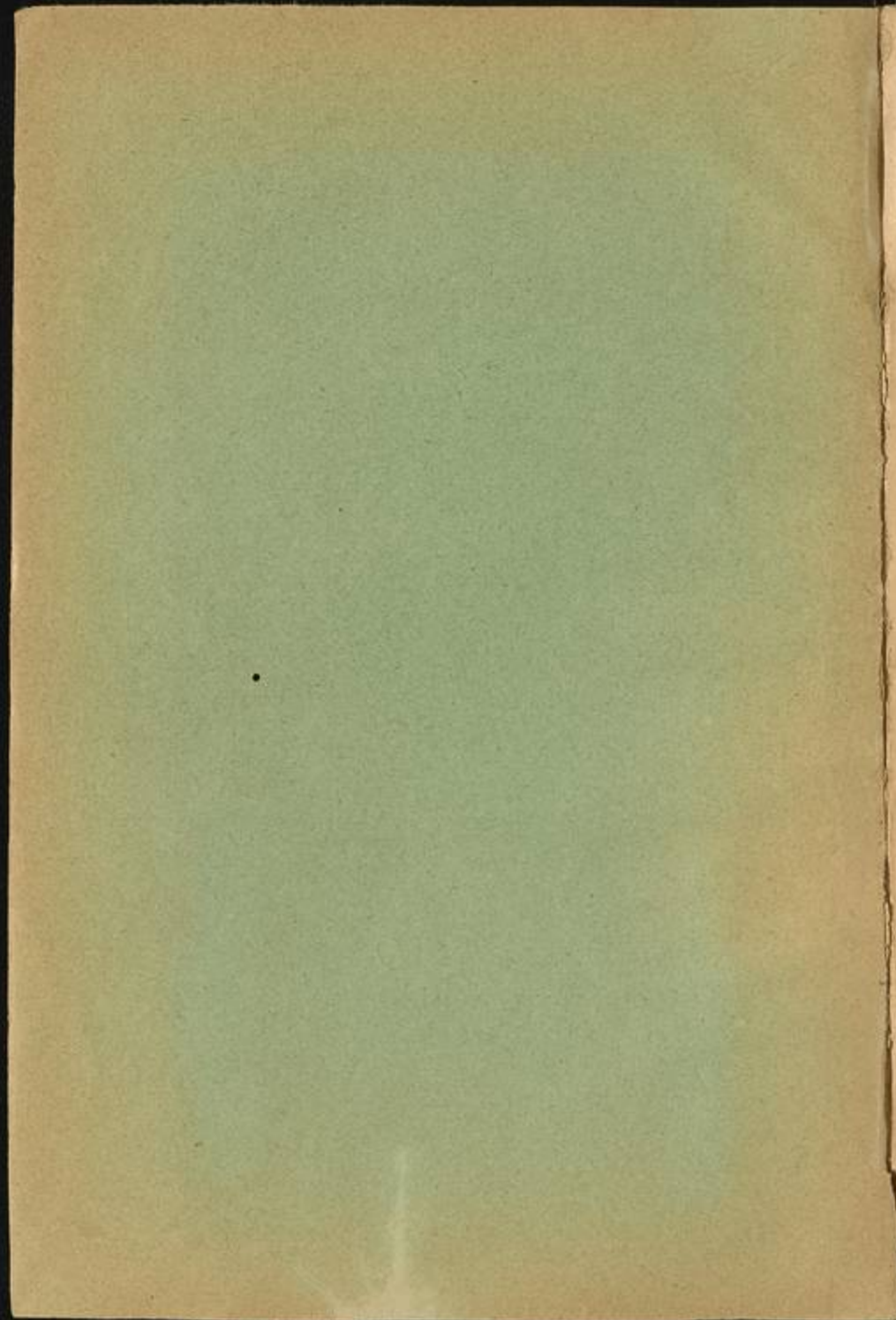
- | | |
|---|----|
| خطبة الناشر | ٢ |
| مقدمة التفسير | ٥ |
| للتفسير وجوه شتى | ٦ |
| القرآن حجة قائمة | ٩ |
| ممراتب التفسير | ١٠ |
| ما الذي يجب على الناس من التفسير | ١٥ |
| الحاجة الشديدة الى التفسير اليوم وفيما بعده | ١٦ |
| جاهلية الناس اليوم أعرق في الجهل من الجاهلية الاولى | ١٩ |
| تأثير القرآن العظيم واعناء العلماء الاولين باللغة العربية | ٢٠ |
| سورة الفاتحة | ٢١ |
| بيان ان الفاتحة هي أول ما أنزل على الاطلاق من القرآن | ٢٢ |
| « ما احتوى عليه القرآن واشتمال الفاتحة عليه اجمالا | ٢٣ |
| التوحيد أهم ما جاء لاجله الدين | ٢٤ |

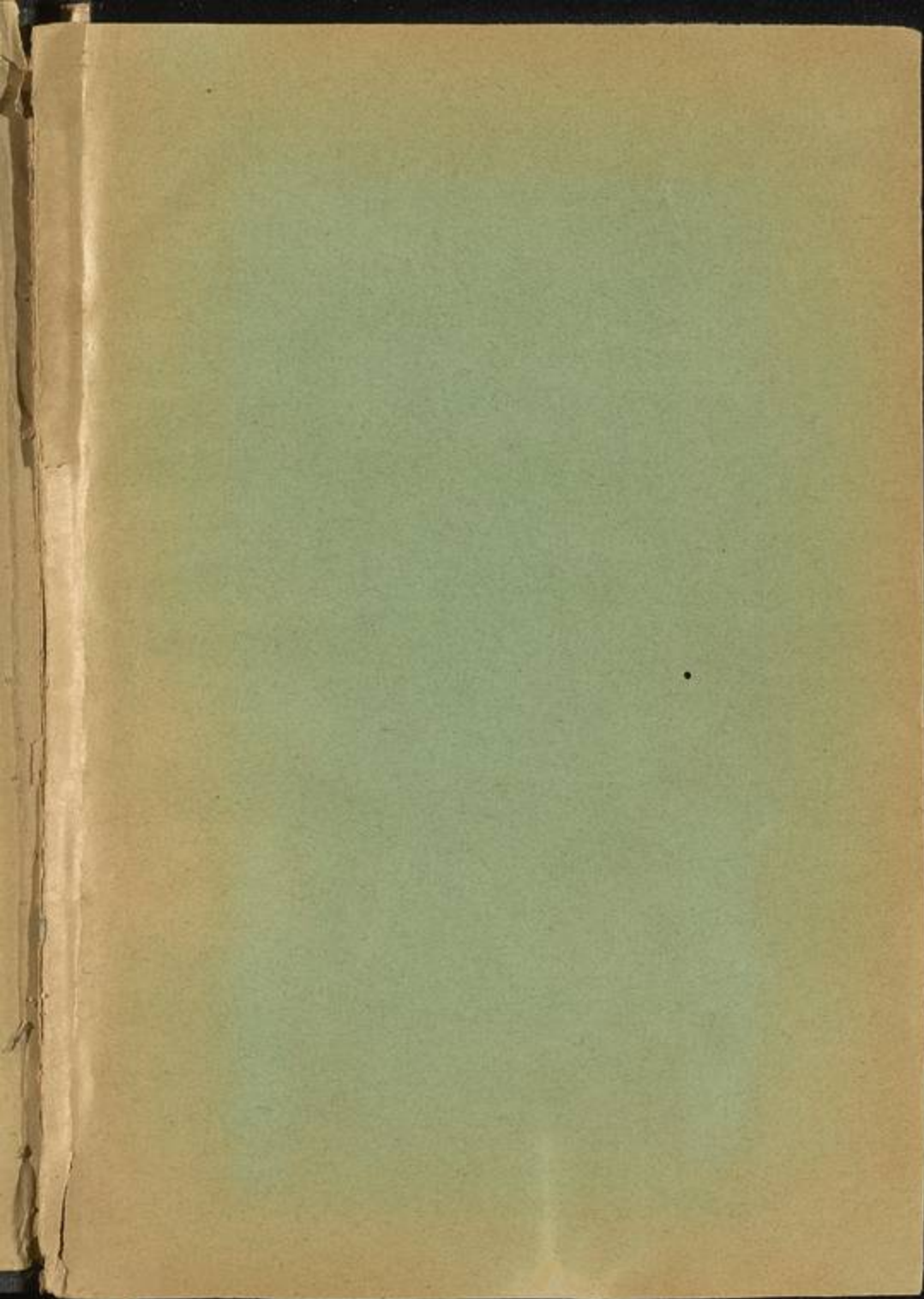
صحيفة

- ٢٨ تفسير البسملة
- ٣٤ « الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم
- ٣٧ « مالك يوم الدين
- ٤٠ « اياك نعبد و اياك نستعين
- ٤٨ « اهدنا الصراط المستقيم
- ٥٥ « صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين
- ٥٩ اقسام الضالين
- ٦٤ المقالة الاولى في افعال العباد و تسميتها تارة اليهم و تارة الى
الله تعالى
- ٧٢ المقالة الثانية مسألة الغرائيق و تفسير الآيات المشبهة بها
- ٧٣ تمهيد
- ٧٤ مصارعة الحق والباطل
- ٧٦ رفع الاسلام مقام الانبياء و حكمه بعضهم
- ٧٧ عيش عشاق الروايات و افسادهم في الدين
- ٧٨ الروايات و اختلافها في مسألة الغرائيق
- ٧٩ مخالفة المحققين لها

صحيفة

- ٧٩ الرجوع الى اهل العلم الصحيح في ازالة الخيرة
- ٨٠ الطمن في تفسير التمني بالقراءة
- ٨١ الطمن في حديث الغرائق رواية ودراية
- ٨٢ عصمة الانبياء
- ٨٢ الوجوه الدالة على بطلان حديث الغرائق
- ٨٦ تفسير الآيات على الوجه الموافق لاسلوب القرآن
المنطبق على العقائد الصحيحة
- ٨٧ للسياق وسابق الآيات
- ٨٨ التفسير الاول وفيه المقابلة بين الآيات وآية سورة
آل عمران في المحكمات والمتشابهات
- ٩٣ الوجه الثاني في تفسير الآيات
- ٩٣ امانى الانبياء
- ٩٤ سنة الله في الانبياء وفي اقوامهم
- ٩٧ تأويل ثالث
- ٩٩ اللغات في الفروق ومعانيه
- ٩٩ عدم ملائمة معانيه لوصف الآلهة وانتفاء نقل ذلك





893.7K84

DA3

JUL 27 1964

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58872906

893.7K84 DA3

Tafsir al-Fatihah :

893.7K84 - DA3